سردار أوزكان

الوردة الضائعة

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



ولد سردار أوزكان في تركيا عام ١٩٧٥. تخرّج في كلية روبرت وتابع دراسته في التسويق وعلم النفس في جامعة ليهاي في بنسلفانيا بالولايات المتحدة. ثم عاد الى تركيا حيث أكمل دراسة علم النفس في جامعة بوسفور اسطنبول.

منذ العام ٢٠٠٢ تفرّغ أوزكان للكتابة الروائية. روايته الأولى، الوردة الضائعة، ترجمت الى أكثر من ٢٥ لغة وحازت استحسان النقّاد والقرّاء في العالم أجمع.

هذا الكتاب

رواية لا تقلّ أهمية عن الخيميائي والأمير الصغير، تحمل في طيّاتها سر أختين توأمين تجهل كل منهما وجود الأخرى ورحلة افتراقهما في ظروف تتخلّلها أخطاء وخطايا وذنوب ومبرّرات قد تكون مقنعة تستدعي التعاطف وقد تثير الغضب.. أمّ تسجل اعترافاتها في اللحظات الأخيرة؛ رسائل تصل متأخرة؛ وتعارف إن وقع يكون فقد وهجه؛ عتاب ودموع في سرد تصاعدي صدامي حيناً وشاعري أحياناً.. لكن ثمة مؤشّرات على الإنسان وما يملكه من حواسّ خفية وقوى تجعل منه أهم ممّا يبدو في الظاهر؛ وتكشف، من ثمّ علاقاته بالطبيعة وعناصرها وما تمثّله، وما تبثّه من مشاعر يتراقص فيها الألم وصهيل الضحكات.

بانوراما أحاسيس في جسد رواية ليست عادية أبداً، تكتشف فيها البطلة ديانا ما ليس متوقّعاً أن تكتشفه.

ISBN 978-9953-88-312-0

9 789953 883120

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون ٧٥٠٨٧٢ - ٧٥٠٧٢٢ +٩٦١١٣٥٠٧٢٢
تلفون+فاكس ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - +٩٦١١٧٥٤٥٤٧

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١٠
ISBN: 978-9953-88-312-0

Originally published as: The Missing Rose ©
Published in agreement with the author, c/o BAROR INTERNATIONAL, INC., Armonk, New York, U.S.A.

ترجمة: أنطوان باسيل
مراجعة: فؤاد زعيتر
الغلاف: برنار يوسف
الإخراج الفني: بسمة تقي

يا وردة، يا الأنت السقيمة:
ها إن الدودة الخفيّة،
التي تطير ليلاً،
في ولولة العاصفة،
قد عثرت على سرير فرحك القرمزي؛
وها إن حبها السرّي
يدمّر حياتك.

(وليام بلايك)

عليك بدخول الحديقة
وعليك بالتجوّل في أرجائها
وبأن تشمّ وردة نضرة...
وردة لا يعرف الذبول إليها طريقاً...

(يونس إمري)

توطئة

أفسس! مدينة الثنائية. موطن كل من هيكل أرطميس، ومعبد مريم العذراء، المقدّسة. هي المدينة التي تجسّد كلتا الأنا والروح؛ خلاصة الغرور والتواضع. وهي تجسيد للعبودية والانعتاق. أفسس! المدينة التي تتداخل فيها التناقضات؛ المدينة التي هي إنسانية بقدر إنسانية الروح الحيّة.

جلسا جنباً إلى جنب، في إحدى أمسيات تشرين الأول/ أكتوبر، على ضفة جدول ميليس، على مقربة من تلك المدينة؛ مدينة أفسس القديمة. أوشكت الشمس على الاختباء خلف جبل بلبل الذي أضفت عليه أشعتها القرمزية. فالذين يتحدّثون لغة السماء، جاؤوهما بالبشارة السعيدة بقرب هطول المطر.

«يبشّر القديس بولس الناس بمريم العذراء»، قالت الشابة. «أوَتسمع الجماهير تصيح محتجّة، وتلعنه بغضب؟ الآلاف يتمرّدون على الديانة الجديدة التي تمنع عليهم عبادة آلهتهم الخاصة. أنصتْ إليهم يضربوا بأقدامهم الأرض، ويصيحوا لا نرّيد مريم! فنحن نعبد أرطميس!».

«أرطميس؟»، سأل الشاب. «الإلهة؟ ديانا الرومانية؟».

«لا تهتم بها»، قالت الشابة. «فما هي إلا وهم، صوّره آخرون وعبدوه».

«يبدو أنك تعرفين الكثير عنها».

«أعرفها معرفتي بنفسي».

«لمَ إذاً، لا تخبرينني شيئاً عنها؟».

«هي إلهة الصيد»، شرعت قائلة. «صيّادة حقّة، تستخدم سهمها لتقدّم الموت المفاجئ اللطيف إلى عدوّها. روح حرّة، وبرغم ذلك مستعبَدة... تابعة، لكن متكبّرة. فقد ولدتها أمها، ليتو، مستندة إلى شجرة زيتون، هي و...».

وأضافت بعدما أخذت نَفَسها عميقاً: «شقيقتها التوأم...».

الجزء الأول

١

اثنتان هما واحدة...

واحدة فقط. بالتأكيد، نعم! وطبعاً ثمة زجاجة واحدة فقط.

لا، هذا ليس صحيحاً... فأنا أرى زجاجتين.

إلّا أنني ربما، ربما تزدوج رؤيتي، وربما لا تزال الفرصة متاحة لوجود زجاجة واحدة فقط...

لا، لا يمكن أن أكون على هذا الحد من السُّكر. لا يمكن أن تزدوج رؤيتي. لا شك في أنهما زجاجتان.

نعم، حسناً، إنهما زجاجتان. لكن، لماذا توجد اثنتان؟ لماذا اثنتان؟

آه، يا إلهي، كم هما متشابهتان. حجمهما، شكلهما، لونهما واحد بالضبط. بل إن تاريخ صنعهما اللعين ذاته! نعم، إنهما... إنهما زجاجتان توأمان!

لكن، كيف؟ كيف يمكن زجاجة واحدة أن تصبح فجأة اثنتين؟ كيف يمكن هذا أن يحصل؟

ولماذا؟

هذا ليس بعدل...

في واحد من أكبر بيوت ريو دي جانيرو حجماً وجمالاً، يقع على تلّة تطلّ على الخليج، يدور من جديد المشهد ذاته الذي عِيش في كل ليلة من ليالي الشهر الفائت. فديانا، المدفونة وسط وسائد الأريكة السوداء في أضيق زاوية من زوايا غرفة المعيشة، تستلقي مع زجاجتي المشروب، وهي تحاول أن تفهم كيف انقلبت حياتها فجأة، رأساً على عقب.

الليلة، كما في كلّ ليلة، تجد الأمور التي كظمتها في خلال النهار، طريقَها إلى خارج جسمها لتجثم عليه كأنها طن من الآجرّ. جسدها متخدّر، شأنه شأن حاله في كلّ ليلة؛ وشعرها الكستنائي على قدر كبير من التشعّث، وعيناها الخضراوان حمراوان أيضاً كالدم. انتقلت هاتان العينان الحمراوان من الزجاجتين الموضوعتين على الطاولة الصغيرة، إلى صورة والدتها على رف الموقد. . وعادتا من جديد.

الفارق الظاهر الوحيد عن الليالي الأخرى، هو النار التي أشعلتها خصيصاً لإحراق الرسالتين. أوقدت ظلال اللهب

المتراقصة على وجه ديانا، في ليلة أيار/مايو الدافئة تلك، النار في داخلها.

تجرّعت آخر رشفة من كأس المشروب التي تحملها في يدها، وأسقطتها على الأرض. وقبل أن تشدّ حَيْلها لتتناول الزجاجة الثانية، أدارت عينيها، للحظة، صوب الزجاجة التي أنهتها للتو.

«تعلمين»، قالت للزجاجة. «أنت مثلي تماماً. فبرغم أنك انتهيت، لا تزالين منتصبة بوقاحة». وابتسمت بمرارة. «فنحن في النهاية آلهتان، أوَلسنا كذلك؟ ما الذي يمكنه أن يصرعنا؟».

واستدارت من ثمّ إلى الزجاجة الثانية، وقالت «أما أنت يا سارقة الأم! تقول والدتي إنك وأنا توأمان. لكنك لست بالنسبة إليّ سوى وهم».

نهضت ديانا بنفسها عن الوسائد، وانحنت صوب الطاولة الصغيرة؛ إلا أنها، بدلاً من الوصول إلى الزجاجة، التقطت رسالة أمها الموضوعة إلى جانبها. وهي الرسالة التي جعلت الزجاجة الواحدة تتحول، في غضون دقائق، إلى زجاجتين.

سبق لوالدتها أن أعطتها الرسالة منذ شهر، في اليوم الذي سبق موتها. وطلبت من ديانا ألاّ تقرأها إلا بعد وفاتها،

ورجتها، في آخر كلماتها قائلة، «هذه أمنيتي الأخيرة، يا عزيزتي. أريد منك وعداً بأنك ستلبّينها».

سألت ديانا والدتها عما تريد منها القيام به، إلا أن الأم لم تجب بحرف واحد. وحدّقت، بدلاً من ذلك، في ديانا بعينيها الزرقاوين العميقتين، وانتظرت وعد ابنتها بصبر. بدا كما لو أن هاتين العينين لن تستكينا أبداً. لكن ديانا لم يكن في إمكانها تحمّل نظرات والدتها المستعطفة طويلاً، فأعطت كلمتها في النهاية.

سمعت أمها الوعد الذي قطعته، فعاد البريق إلى عينيها، واستعاد وجهها الشاحب الحياة للحظة. أخذت يد ديانا بين يديها وقالت «عرفت، يا عزيزتي، أنه يمكنني الاتكال عليك. اعتني بها، اعتني بها جيّداً، فهي فريدة من نوعها».

انحنت ديانا صوب والدتها، وسألت، «هي؟ من هي؟ عمّن تتحدّثين يا أمي؟». إلا أن سؤالها بقي بلا جواب حتى رحيل والدتها في اليوم التالي.

فتحت ديانا الرسالة وقرأتها. أحسّت بأن الأرض تميد تحت قدميها. قرأت الرسالة المرّة تلو المرّة، وهي تشعر بأن ما بقي لها من قوّة يُستنزَف منها.

لم يتبدّل الكثير من حينها.

قرأت ديانا رسالة أمها مرّة أخيرة قبل أن تطعمها للنار:

١١ نسيان/أبريل

ديانا، يا أعزّ من لديّ،

آمل أنك بخير يا عزيزتي. عليك أن تكوني بخير. لا ينبغي أن تعتقدي أنك فقدتني. أعرف أن الأمر ليس سهلاً، لكنني أرجوك أن تحاولي...

أرجوك ألا تنسي، من وقت إلى آخر، إطلاعي على أحوالك. خربشي لي شيئاً في دفتر يومياتك. حادثي صورتي، اكتبي لي قصصاً...

أخبريني عن موعد تخرّجك حين يُحدّد. أرجوك ألا تتخلي عن نزهاتك المسائية. أنت تحضرين صفوفك، أليس كذلك؟ هل من أخبار عن طلبات التوظيف التي تقدّمت بها؟ أرجوك أن تخبريني عندما تكتبين قصصاً جميلة، كما تعودّت أن تفعلي. من يدري، ربما تُبلغينني قريباً بالخبر السار عن أنك قررت أخيراً أن تصبحي كاتبة. ما الذي يمنعك يا عزيزتي، من مواصلة حلمك الأكبر؟ إلا أن الخيار، دائماً، يعود إليك. فجلّ ما أريده هو سعادتك.

أقول سعادتك، يا ديانا، لكن ما عليّ إطلاعك عليه في هذه الرسالة، قد يتسبب لك في بعض اليأس. أرجوك أن

تعلمي بأن هذا ليس قصدي. إلا أنني أخشى أنه لا يوجد لدي خيار آخر. سامحيني...

تمنّيت حقيقة لو أمكنني أن أناقشك وجهاً لوجه، في ما أنا على وشك قوله لك. إلا أنني، كما يمكنك ملاحظة ذلك من رداءة خطّي، لم أعد أمتلك القوة لمواجهتك بهذا الخبر، أو لإخبارك بجميع التفاصيل. أملي الوحيد أن يساعدني الله على المضي في هذه الرسالة حتى إنجازها.

لا أعرف تماماً من أين أبدأ...

وحتى لو عرفت، فلن أستطيع. . . لأنه علي، من أجل أن أبدأ، أن أعود بالزمن ٢٤ عاماً، إلى اليوم الذي كنتِ فيه في عامك الأول، واليوم الذي رأيت فيه والدك للمرة الأخيرة.

ديانا، يا عزيزتي... الحقيقة أن والدك لم يمت، بل إنه هجرنا. تركنا وأخذ معه شقيقتك التوأم ماريا...

لذا، كي لا تعيشي الألم الذي شعرت به، وتترعرعي كابنة تخلّى عنها والدها، تركتك طوال تلك السنين تعتقدين أنه مات. بل إنني نصبت شاهد القبر الذي كنت تزورينه في كل شهر معتقدة أنه لوالدك، في حين أنه لا يزال حياً، ويعيش في ساو باولو. وهو، في أي حال، بمثابة الميت بالنسبة إلينا، كلتينا.

عندما انتقلنا إلى ريو دي جانيرو، بدا كأننا نخلّف

الماضي وراءنا. لم أقل لأحد قط إن والدك حيّ، كما لم أشر بأي كلمة إلى ماريا. كنت أعرف أن والدك الذي فصلنا عن ماريا، لن يدعنا نراها أبداً. ولا بد من أنه روى قصة شبيهة بتلك التي رويتها لك.

ولا بد من أنك تتساءلين، عن حق، لماذا أخبرك بهذا الآن. دعيني أشرح...

قام صديق مشترك بإطلاع والدك، منذ نحو شهر ونصف الشهر، على مرضي. ولربما أراد أن ينأى بنفسه عن الملامة فأعطى عنواني لماريا. لكنني أعلم بأنه لم يخبرها بشأنك أو بشأن مرضي.

ومنذ ذلك الوقت، كنت أتلقى من ماريا رسالة كل أسبوع؛ وقد وصلني منها أربع رسائل، إلا أنها لم تحمل قط عنوان المُرسل. كتبت أنها تتطلع للمجيء ورؤيتي قريباً. إلا أنني تلقيت، منذ أسبوع، ملاحظة منها:

«أمي، لم أعد أستطيع أن أتحمّل وجودي بدونك. لا فائدة من الحياة إذا لم أتمكن من لقائنا. آه، أمي... أريد وضع حد لحياتي... ماريا، ٢٣ آذار/مارس».

بدا من رسائل شقيقتك، أنها تضج بالحياة إلى درجة أنه لا يمكنني بعدُ أن أصدّق أنها كتبت مثل هذا الأمر. ولا

يمكنني أن أفهم، بما أنها تملك عنواني، لماذا لم تأت لزيارتي.

وكما لو أن هذه الملاحظة لا تكفي وحدها، فقد هاتفني والدك بالأمس. إنها المرة الأولى التي يتصّل فيها منذ ٢٤ عاماً. ما إن سمعت صوته حتى علمت بأنه يتصّل في شأن ماريا. وبالفعل، فإن ما قاله هو، «هل تعلمين بمكان ماريا؟». ومضى يخبرني أنه قبل ذلك بنحو أسبوعين، اختفت ماريا تاركة وراءها رسالة وداعية ـ ستجدينها مرفقة بهذه الرسالة ـ، أرسلها والدك بالفاكس بعد محادثتنا. قال إنهم بحثوا في كل مكان عن ماريا، وسألوا عنها جميع أصدقائها، لكنهم لم يعثروا على أي دليل عن مكان وجودها.

آه، ديانا، ثمة أمر يمكنني القيام به في الوقت القليل الباقي لي... أنا خائفة للغاية... وأنت أملي الوحيد. لذا، لا خيار أمامي سوى أن أرجوك أن تعثري على أختك التوأم وتعتني بها.

آسفة جدّاً لإضافتي المزيد من الألم إلى حزنك، ورمي ثقل مثل هذه المسؤولية على عاتقك. إلا أنني أشعر بأسف أكبر على تركي ابنة أخرى أمضت حياتها بأكملها تأمل لقاء والدتها.

لا ينتابني أي شك، لأنني أعرف مدى حبّك لي، في أنك ستبذلين كل ما في وسعك لتحقيق أمنيتي الأخيرة هذه. لكنني أعلم بأن العثور على ماريا ليس بالأمر السهل. فما من دليل على مكان وجودها. أملنا الوحيد أن رسائلها تركت لي الباب نصف مفتوح على العالم العجيب الذي أوجدته لنفسها. فعالمها عميق، غامض، لا يُعثر عليه إلا في قصص الجنّ؛ إلا أنه، في الوقت ذاته، على جانب كبير من الواقع. أنا واثقة من أنها لم تتشارك فيه حتى مع والدها أو مع أقرب اصدقائها إليها. لهذا، أعتقد أننا نملك حظّاً أوفر من أي شخص كان في العثور عليها.

ما أريد منك القيام به، هو الدخول إلى عالم ماريا، وملاحقة الآثار التي خلّفتها وراءها. فمن، في النهاية، يستطيع القيام بهذا أفضل من شقيقتها التوأم؟

كل ما لدينا من معلومات ثلاثة أسماء كتبتها ماريا في رسائلها: «زينب»، و«سقراط»، إضافة إلى اسم أحد القصور. وقد لا تكفي هذه الأسماء لتقفّي أثرها. لكن، للأسف، هذا كل ما لدينا.

رسائل ماريا موجودة في صندوق قديم، تجدين مفتاحه في علبة مجوهراتي.

آمل، يا ديانا، أن يلتئم شملك وماريا قريباً، على غرار ما كنتما في السابق في داخلي.

وعندما يحصل ذلك، اكتبي لي، أرجوك...

ديانا، يا عزيزتي، ليس الوقت وقت وداع. ما من وقت لهذا. أرجوك ألا تنسي أبداً أنني معك على الدوام. وأنا أحبك جداً.

والدتك».

٢

فتحت ديانا رسالة الوداع التي كتبتها ماريا لوالدها، وقد حان موعد إحراقها.

«١٧ آذار/مارس،

والدي العزيز،

عليّ أن أغادر المنزل اليوم.

ربّما تتساءل لماذا...

البارحة، بعد مضي سنوات طويلة، أعدت قراءة «الأمير الصغير» لسانت إكزوبيري. بدا أن الكتاب تغيّر كلّياً! الأمر الوحيد الذي لم يتغيّر هو الوردة التي لا تزال شخصيتي المفضّلة، وكذلك الثعلب، بالتأكيد؛ لأنه هو الذي يعلّم الأمير الصغير كيف يتولّى مسؤولية هذه الوردة، والعناية بها.

أعتقد أنني شرعت، في النهاية، في فهم ماذا يعني «أن نكون مسؤولين عن الوردة». وهذا هو سبب مغادرتي.

يحثّنا إكزوبيري، في نهاية الكتاب، على سؤال أنفسنا، «هل الخروف أكل الوردة؟ نعم أم لا؟». قال إن الجواب عن هذا السؤال يغيّر كلّ شيء.

لذا، أسأل نفسي سؤالاً مشابهاً:

«أسَرَقَ آخرون وردتي؟ نعم أم لا؟».

إكزوبيري محقّ. فالجواب عن هذا يغيّر كل شيء. إلّا أنني أعلم بأنه ما من إنسان بالغ يمكنه أبداً أن يفهم لماذا.

أغادر لأن جوابي عن هذا السؤال هو «نعم».

أغادر لأستردّ وردتي...

ماريا»

أدارت ديانا الزجاجتين مرّة أخرى. «أخبراني أيتها الزجاجتان!»، قالت. «أخبراني ماذا يعني هذا كلّه... ألا يبدو ذلك كلّه جنوناً مطبقاً؟ الرحيل بعد قراءة كتاب... الضياع من أجل وردة؟ ما الأمر برمّته؟ استرداد وردة أحد ما، المسؤولية عن وردة...

«لا، لا، لست مهتمّة بمعرفة ما ترمز إليه الوردة في «الأمير الصغير»، ولا ما تعنيه لتلك الفتاة. أنا لا أهتم حقيقة بذلك البتّة! ما أريد معرفته، هو: لماذا عليّ أنا أن أدفع لأن

فتاة ما لم أرها من قبلُ، غادرت منزلها، وأرادت من ثمّ وضع حد لحياتها؟».

أطرقت غاضبة من نفسها لطلبها المساعدة من الزجاجتين اللتين ازدرت بهما قبل وقت قليل. لكن، من غيرهما؟ من غير تينك الزجاجتين سيستمع إليها؟

«كم كانت كلمات أمي صادقة»، تمتمت ديانا. «قالت إن ماريا فريدة من نوعها... وهي بالطبع. . . بالطبع فريدة من نوعها. الطريقة التي سرقت بها أمي مني، هي فريدة من نوعها حقّاً».

غرقت في لجة صمت هائلة، كانت كافية لتحرر نفسها من ثقل رسالة توأمها. . . لكنهما توأمان، فكيف تهرب من روح أختها. . . ضغطت بيدها بقوة على رسالة ماريا، وعركتها بين أصابعها المرتجفة، وألقت بها في النار. همست «سامحيني يا أمي»، وهي تنظر بدون أي تعبير إلى كتلة الورق تتحوّل ببطء إلى. . . رماد.

٣

أفاقت ديانا مرتعبة على صوت جرس الباب، وقد شقّ رأسها كالسكين- برغم رنّته الموسيقية.

«يا سيدة لوبيز! يا سيدة لوبيز! رجاءً، انظري مَن في الباب!».

ولمّا لم تلقَ جواباً، تذكّرت أنه يوم عطلة السيدة لوبيز. جرّت نفسها واقفة، وهي تتمسّك بالأريكة. شقّت طريقها إلى الباب، وهي بالكاد تتمكن من الوقوف على قدميها.

أمكنها، من كاميرا المراقبة، أن ترى الطارق غير المرحَّب به في مثل هذه الساعة. إنه غبريال، الساعي الذي يسلّمها على نحو منتظم، جميع أنواع الطرود المزيّنة بالشرائط أو الأزهار.

فتحت الباب. وجدته هذه المرة أيضاً يحمل طرداً آخر مزيّناً بالشرائط، تكاد قمّته تبلغ أسفل ذقنه. وقد تناسق وجهه الأسمر وقبعته السوداء تماماً مع لون الطرد.

«طاب يومك يا آنسة»، قال غبريال. «أحمل أيضاً هدية أخرى موجّهة إلى أجمل فتاة في ريو دي جانيرو. هل تعلمين إن كانت تقيم هنا؟».

«أوَليس مبكراً بعض الشيء، تسليم الطرود يا غبريال؟».

«حسناً، يجب أن يكون هذا هو العنوان الصحيح إذاً، لكن ربّما كان الخطأ في التوقيت!».

«كم الساعة الآن؟».

«حان الظهر».

«أتأخر الوقت حقاً إلى هذا الحد؟».

أخذت ديانا الطرد، ووقّعت على دفتر التسليم بخربشة تشبه أي شيء ما عدا توقيعها. وقبل ان يتفوّه غبريال بعبارته المعتادة، «انتبهي إلى نفسك إلى أن يجمعنا المعجبون بك معاً مرّة أخرى»، أقفلت ديانا الباب.

كان تلقّي الطرود المغلّفة بورق الهدايا يُفرح نهارها دوماً، إلا أنها هذه المرّة لم تهتم البتة بمعرفة ما في داخل الطرد، ولا من أرسله. تركته عند الباب وتوجهت إلى الأريكة.

شاهدت، وهي تعبر أمام المرآة في البهو، لطخات الخَمرة على قميصها. تذكّرت أمها فجأة؛ وهو أمر ألفته في هذه

الأيام. إذ يكفي أي أمر صغير، أو أي شيء يبدو غير ذي علاقة، ليعيد ديانا إلى حياتها مع أمها. أي لون، أي رائحة، والآن القميص الملطّخ... عادت إلى الحياة ذكرى اليوم الذي اشترت فيه هذا القميص، والحديث الذي دار بعد ذلك مع والدتها، كما لو أن الأمر حدث بالأمس وحسب...

شكّل الأمر لديانا واحداً من أيام التسوّق تلك. ففي المتجر، استشارت نفسها أولاً إذا كانت تحتاج إلى قميص جديد أم لا، قائلة لنفسها إنها اكتفت بالفعل من التسوق لذلك اليوم، لكنها انتهت برغم ذلك بشراء قميص أصفر آخر.

وعندما أرته ديانا لأمها، لم تكلّف نفسها عناء إخفاء بطاقة سعره البالغ ٢٢٠٠ ريال برازيلي.

سألتها أمها، بعد نظرة سريعة على السعر، «عزيزتي، هل قرأت عن مزاد باريس في صحيفة الأمس؟».

«لا، يا أمي، لماذا؟».

«بيعت سترة تخص ديكارت بـ ٢٥٠ ألف ريال برازيلي في المزاد».

«آه، حقّاً؟ أنا سعيدة لأننا لم نكن هناك. فأنت لم تكوني لتشتريها، ولبقيت عالقة في ذهني. على أي حال، انظري، ألا تعتقدين أن قميصي أكثر أناقة من سترة ديكارت؟».

«٢٥٠ ألف ريال برازيلي بالكامل، يا ديانا!».

«آه، حسناً، أرى ما ترمين إليه. تحاولين أن تقولي لي إن الـ ٢٢٠٠ ريال برازيلي ليست في الحقيقة مبلغاً كبيراً يُدفع لقاء قميص كهذا، أليس كذلك يا أمي العزيزة؟».

عرفت ديانا تمام المعرفة أن ليس هذا ما يجول في خاطر أمها، لكنها أرادت استخدام سحرها لتمرير الأمر بسهولة، بحيث يمكنها أن تذهب وتعلّق بفرح قميصها الجديد مع أكمام قمصانها الأخرى.

«حسناً، أنت محقة في أمر واحد، يا عزيزتي. قميصك بالتأكيد أكثر أناقة من سترة ديكارت. فسترته لم تكن مصنوعة من الحرير أو الكشمير، كما أنها ليست من دونا كاران أو أرماني. وهي لم تكن في الحقيقة لتكلّف أكثر من ٣٠ ريال برازيلي في المتجر».

«يبقى، يا أمي، أن سعر المزاد معقول، بمعنى أن ديكارت هو الذي ارتدى السترة!».

«صحيح. من المؤكد أن ثمن قطعة من الملابس يرتديها شخص مثل ديكارت، سيرتفع. لكن، هل يمكنك أن تتخيّلي العكس؟».

«ماذا تعنين؟».

«قطعة ثياب ترفع من قيمة شخص...».

طأطأت ديانا رأسها للحظة. أدركت ما حاولت والدتها مرّة أخرى قوله بطريقتها الخاصة، التي لا مثيل لها: «الأمر الوحيد الذي تحتاجين إليه لتشعري بأنك متميّزة، هو نفسك».

«أعرف ما تعنينه يا أمي، لكن الناس يريدون دوماً رؤيتي وأنا أرتدي الأفضل. ما إن يروني حتى يميّزوني من فوق ومن تحت، من أخمص قدمي حتى قمة رأسي. وعندها فقط يقولون: مرحباً. وإذا ما ارتديت الثياب ذاتها ليومين على التوالي، ينظرون إلي باستهجان.

هل تظنين أنني أحب أن يتم الحكم عليّ من خلال مظهري؟ أو رؤية الاحترام غير الصادق في أعين الناس؟ وهمساتهم حول مجموعة ثيابي، وما أشتريه من كارتييه، ومن مازيراتي، ومن هذا وذاك... كلاّ يا أمي، أنا لا أحبّ ذلك حقيقة. لكنك تعرفين أن الجميع في كل وقت، يتوقعون منّي الأفضل بالنظر إلى من نكون».

«وتعتقدين، يا عزيزتي، أن من واجبك أن تحققي توقعاتهم، أليس كذلك؟».

«ما الذي في وسعي عمله؟ نحن لا نعيش في الأدغال».

وأضافت وهي تبتسم مداعبة: «اعترفي بالأمر يا أماه،

فديانا أوليفيرا قد أضحت ماركة مسجّلة. كيف يمكنني أن أخيّب جمهوري، وأولئك المعجبين الذين يمطرونني بالإطراء الذي لا ينتهي؟».

لكن، منذ بضعة شهور مضت، تبدّلت أمور كثيرة في حياة ديانا منذ اللحظة التي نطق فيها الطبيب بتلك العبارات القليلة...

قال الطبيب: «والدتك لن تعيش»!

٤

بدا المطبخ، مع خزانة الدواء فيه، بعيداً للغاية. أخذ المنزل يصبح، في كل يوم، أكثر فأكثر اتساعاً بالنسبة إلى ديانا، وصارت المسافة من غرفة المعيشة إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى غرفة النوم، ومن غرفة النوم إلى الحمام، تراها أكثر بعداً. وهي، منذ شهر حتى الآن، لم تنزل إلى الطابق السفلي حيث بركة السباحة، ولم تصعد إلى الطابق العلوي حيث الشرفة والاستوديو الفنّي، وليست لديها فكرة إذا أصبحا هما أيضاً أكثر طولاً. كما أنها لم تمتلك الرغبة في اكتشاف ذلك.

ها قد بلغت المطبخ أخيراً. سكبت كوباً من الماء، وشربته جرعة واحدة. ثم سكبت آخر، وثالثاً، وارتشفته هذه المرّة مع حبتي أسبرين مذابتين فيه.

«سافرت» عائدة إلى غرفة المعيشة. كانت في طريقها متوجّهة، مرّة أخرى، إلى الأريكة، عندما رن هاتفها الخلوي.

رنّ مرة ثانية، وثالثة، ورابعة... ولم تقرر الإجابة إلا بعد الرنّة السابعة.

«عيد ميلاد سعيد! عيد ميلاد سعيد! عيد سعيد...»...
«عوى» صوت رجل شاب.

قطعت ديانا الاتصال فوراً، ورمت بالهاتف على الطاولة.

أصحيح هذا؟ أهو حقّاً عيد ميلادها؟ أعلى أحد تذكيرها بذلك؟

كانت دائماً، في الماضي، تعدّ الأيام حتى قدوم عيد ميلادها، وتخطط له مسبقاً، وتضع بعد ذلك قائمة بالأشخاص، بحسب الترتيب، الذين سيحتفلون فيه بها.

لطالما احتلّ اسم أمها المرتبة الأولى في القائمة.

سيكون هذا أول عيد ميلاد تمضيه من دونها. الأول في ما بقي لها من أعياد ميلاد...

امتلأت عيناها بالدموع.

مضت إلى الخزانة، وبحثت في أدراج عدّة قبل أن تجد أخيراً دفتر مذكراتها. جلست على الأرض، فتحته، وشرعت في الكتابة:

«أمي الحبيبة،

قلتِ إنك دوماً معي... فلماذا إذاً، كنت أفتقدك بهذا القدر؟

لقد علمت للتو بأن اليوم هو عيد ميلادي... تخيّلي!

آه، أمي... أين أنت؟

سامحيني لأنني لم أُجبك في وقت أبكر. الأمر هو أنها المرّة الأولى التي أفتح فيها دفتر مذكراتي منذ رحيلك...

لا، أنا لست حانقة عليك بسبب اعترافك. ربما شعرت في البداية ببعض الغضب، وربما انسحق قلبي بعض الشيء، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً. أنا واثقة من أن لديك أسباباً وجيهة لإخفاء الحقيقة عني.

إلا أنني آسفة، يا أمي. فأنا لم أبحث قط عن ماريا. لن أسامحها أبداً لتسببها في أن تعيشي أيامك الأخيرة في قلب القلق والخوف، بل إنني لم أقرأ رسائلها حتى، هل تصدّقين؟ وربما هي ميتة منذ وقت طويل... سامحيني...

أتعرفين، يا أمي، ما الذي يوجع أكثر ما يكون؟ أشعر، لأنني حنثت بوعدي لك وحسب، بأنني لا أستطيع إبقاءك حيّة في قلبي. كل شيء يذكّرني دوماً بك. لكن هذا يزيد الأمور

سوءاً وحسب... أشعر أن ليس في وسعي أن أتذكّرك بهدوء... ولو أنها لم تظهر قط، لما باتت الأمور على هذا النحو.

أنا أيضاً لست مهتمة بأن أعرف عن ذلك الرجل أيضاً. أنا واثقة من أن لديك ما يكفي من الأسباب لتعتبري أنه بمثابة الميت بالنسبة إلينا نحن الاثنتين، معاً.

دعيني، على أي حال، أُجبك عن سؤالك يا أمي...

اليوم هو آخر أيام المدرسة. وأنا ما زلت كعادتي، من بين الثلاثة الأوائل في صفّي. احتفال التخرج سيتم في ١٩ أيار/ مايو، الساعة الخامسة. لا يمكنك أن تتخيلي كم أتمنى لو أنك تحضرين...

أنا، لأكون صادقة، لم أقم بنزهاتي المسائية. لكن، لا تقلقي، فسأستأنفها ما إن أشعر بتعب أقل.

تريدين أن تعرفي عما حصل مع طلبات توظيفي... لقد عرض عليّ وظيفة في الأسبوع الماضي اثنان من أفضل مكاتب المحاماة في المدينة. وهما يريدان جواباً بحلول آخر الشهر، لكنني لم أقرر بعد أيهما سأقبل.

أعرف أنك ستطلبين منّي أن أرفضهما معاً، وأن أصبح، بدلاً من ذلك، كاتبة. أتمنّى حقيقة، يا أمي، لو أنه في

إمكاني القيام بذلك. إلا أنني أعلم، بقدر ما أنت تعلمين، بأنك الوحيدة التي تحبّ رواياتي. يعتقد الآخرون أنها ليست جيدة.

وأنا، على أي حال، حلمت فقط بأن أصبح كاتبة بسبب تلك القصص الرائعة التي اعتدتِ أن ترويها لي. هي رواياتك التي أضفت معنىً على حياتي. لكنك قد رحلت الآن، ورحلت معك رواياتك. ليس في وسعك أبداً أن تروي لي قصّة أخرى، ولن يمكنك، في حال وضعتُ كتاباً، أن تقرئيه. لن تتمكني أبداً من القول: «آه، كان ذلك رائعاً، يا ديانا».

هذه هي أخباري كلها حتى الآن، يا أمي. آمل أنك ستعلمين، بطريقة أو بأخرى، بأنني بخير».

*

بقيت عينا ديانا مسمّرتين لبرهة على دفتر يومياتها. كتبت هذه الصفحة شاعرة، لوهلة، بأن والدتها تتوقع بعضاً من أخبارها. لكن ذلك سخف! لا يمكن الموتى قراءة رسائل تُكتب إليهم، كما لا يمكنهم تلقي الأخبار عن أن بناتهم بخير.

أقفلت دفتر يومياتها، ومشت إلى الإطار الفضي الذي صنعته أمها خصيصاً هدية لعيد ميلادها. فهي، قبل شهر على

وفاتها، حملت ذلك الإطار الذي حفرت عليه باليد وردة سوداء في كل جانب من جوانبه. «عيد ميلاد سعيد، يا عزيزتي»، قالت. أدركت ديانا على الفور ما لم تقله أمها بالكلام، وامتنعت عن الإشارة إلى أن عيد ميلادها لن يأتي قبل شهرين.

داعبت الورود السوداء الأربع التي تزيّن أغلى تذكار من والدتها. ثم قرأت بصوت مرتفع قصيدة أمها المكتوبة داخل الإطار:

«ليس الأمر ما تعتقدين،

أنت لم تخسريني،

أتحدّث إليك من خلال كل شيء

في ما وراء الذكرى...»

انسابت على خدّها دمعة. «لا يا أمي، ليس الأمر ما تعتقدين»، قالت هامسة. «لقد فقدتك، وأنت لا تتحدّثين إليّ»!

٥

جلست ديانا على مقربة من الطرد آملة أن تكون والدتها هي التي أرسلته. أخذها العجب من أن حتى هذا الطرد المغلّف كهديّة، لم يذكّرها بعيد ميلادها.

احتوى على زجاجة شامبانيا، وعلى بلّورة بشكل قلب، وبطاقة تهنئة بعيد الميلاد، ورسالة حب لا تحمل اسماً. وقبل أن يتسنّى لها النهوض ورميها في سلة المهملات، رنّ جرس الباب من جديد. يبدو أنها لن تنعم بالسكينة هذا اليوم.

أمكنها أن ترى، من على شاشة العرض، أن الضيفين غير المدعوين هما صديقتاها المقربتان إيزابيل وأندريا. هاتان الصديقتان «المقربتان» لا تهتمان إلا بكيفية تسريحة شعرها، وبما ترتديه من ثياب، وبمدى مَرَحِها وشعبيتها.

لكن ديانا عرفت أيضاً أنها تشعر، من خلال صديقتيها إيزابيل وأندريا، وغيرهما أيضاً، بأنها محط إعجاب، وأيقنت،

من خلال صديقتيها هاتين أيضاً، أنها متميّزة. وهي من خلالهما أصبحت تلك «الديانا».

تَدين لهما بالكثير. تعرف ذلك، يمكنها، وقد جاءتا الآن، أن تمتنع عن فتح الباب، أو تطلب منهما المجيء لاحقاً، أو تصرخ من خلف الباب «لا أريد رؤية أحد!».

فتحت الباب أخيراً ببعض التردد.

«سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة أيتها الإلهة العزيزة، سنة حلوة يا جميل!».

توقف التعبير عن الفرح عندما انتبهتا إلى مظهرها المشعّث.

«ما الذي جرى لك، يا داي؟!»، سألت إيزابيل.

«كم مرّة عليّ أن أقول لك ألا تخلطي في شرابك، يا داي؟»، بادرتها أندريا. ربّما اعتقدت أن المنظر من غرفة المعيشة ليس جيّداً كفاية لها، فأمسكت بيد إيزابيل وسحبتها بسرعة صوب الدرج الصاعد إلى الشرفة، وشرعت تطرح السؤال تلو السؤال:

«ألن تقيمي حفلة عيد ميلادك الليلة، يا داي؟ لماذا لست في المدرسة؟ وما هي مشاريعك؟».

كانتا تخطوان إلى داخل الشرفة، عندما مررت إيزابيل إصبعها على طرف الأثاث المصنوع من خشب التك: «هاك، يا آنسة أوليفيرا! هذا الغبار برهان كاف على أنك تخلّيت عن التمتّع بالمنظر برغم أن المدينة كلّها تمتد تحت قدميك. إليس ذلك صحيحا، يا أندريا؟».

«بالتأكيد!»، أجابتها.

«حسناً، يا داي»، تابعت إيزابيل، «أنت لم تجيبي عن سؤال أندريا. ما المشروع الليلة؟».

«لا أعتقد أنني سأقوم بأي شيء».

«ماذا؟!».

«تعرفان أنني لا أريد أن أخيّب أملكما أبداً، إلا أنني أويت إلى الفراش في وقت متأخر جداً الليلة الفائتة، ورأسي يكاد ينفلق. لذا...».

«لكن اليوم ذكرى ميلادك، يا داي!».

«لا أشعر في الحقيقة بأنني...».

«ما بالك يا ديانا؟»، قالت إيزابيل وهي تحدجها بنظرة كالحة. «أنت من تعوّدت لمّ شمل الجميع، وها نحن بالكاد نرى وجهك. نعرف أنك تمرّين في وقت عصيب، وجميعنا

نتفهّم ذلك. لكن، هل تظنّين أنّ الانزواء والانطواء على نفسك في المنزل سيساعدانك على تجاوز الأمر؟ هل تعتقدين أن هذا ما قد تريده أمّك؟ استجمعي نفسك، فأنت فتاة قويّة».

«كلاّ».

«كلاّ، ماذا؟».

«أنا ضعيفة».

«لا، لستِ كذلك. لا يمكنك. ثمة طريق طويل أمامك، وأهداف، وأحلام تنتظرك... أما إذا استمررتِ في التصرّف على هذا النحو، فلن تتمكني أبداً...».

«أي أحلام؟».

«حسناً، ألا تحلمين بأن تصبحي محامية ناجحة؟».

زفرت ديانا تنهيدة، وتطلّعت إلى إيزابيل أوّلاً، ثم إلى أندريا. ليست لديهما في الحقيقة أي فكرة.

«لم أحلم أبداً بأن أصبح محامية، يا إيزابيل».

«ماذا تعنين؟».

«حلمت فقط بأن أصبح كاتبة».

«آه، حسناً، ذلك الحلم!»، قالت إيزابيل.

«آه، هيّا ديانا»، أردفت أندريا. «لم نعد فتياتٍ صغيرات. عندما كنتُ صغيرة، أردت أن أصبح مغنّية. لكن عندما كبرت، خمني ماذا؟ أدركت أنني أمتلك صوت غراب!».

لم يكن التعبير الودّي على وجه أندريا، ولا مظهر السخرية من نفسها، كافيين لإخفاء ما تحاول قوله حقيقة.

«لا تقلقي، يا أندريا»، قالت ديانا. «أنا أعرف بالفعل أنني أكتب كالغراب».

«لم أقصد الأمر على هذا النحو، يا داي، أردت فقط...».

«حسناً أيتها الفتاتان، لا وقت لدينا للجدال الآن»، قالت إيزابيل. «ماذا بالنسبة إلى الليلة؟».

لم تجب أي من ديانا أو أندريا.

«داي، علينا في الحقيقة أن نمضي، ونذهب لقياس ثياب تخرّجنا. لكننا سنعود، لنقل حوالى الثامنة مساءً لنأخذك. ارتدي ثيابك وكوني جاهزة حتى لا نضيع الوقت. سنأخذك إلى الأولمبيا. أو ما رأيك في دا ماريو؟ وإذا شئت فإلى بالوما، أيناسبك هذا؟ كل ما يتطلبه الأمر هو إجراء بضعة اتصالات لتجتمع الزمرة معاً. ما رأيك في هذا المشروع؟»

«أنا موافقة»، صرخت أندريا.

«الحقيقة»، قالت ديانا، «أشكركما كثيراً على مجيئكما... لكن اليوم أريد البقاء وحدي».

٦

بقيت ديانا بعد ذهاب إيزابيل وأندريا، وحدها على الشرفة لبعض الوقت، وهي تفكر كم أنهما لا تعرفانها جيّداً. منذ سنوات، ضحكن ولهون معاً، وتشاركن في أوقات سعيدة كثيرة... وبرغم ذلك، كيف يمكن لهاتين الفتاتين ألا تعرفاها وتعرفا ما حلمت به؟ لكن، ما همّ إذا لم يتفهّم أحد حلماً قررت التخلّي عنه؟

فكّرت في السؤال الذي طرحته عليها أمها في رسالتها: «ما الذي يمنعك، يا عزيزتي، من مواصلة حلمك الأكبر؟».

عرفت ديانا أنها لو امتلكت ألف حياة، فستبقى ترغب، في كل واحدة منها، في أن تصبح كاتبة. والسبب الوحيد في اختيارها الحقوق، هو السيناريو الرهيب الذي تصوّرته لنفسها لو أنها صارت مجرّد كاتبة عادية...

"سيعتقد من حولها بادئ ذي بدء، أنها أهدرت مؤهلاتها.

إلا أنهم، برغم ذلك، سيخفون على نحو مؤدب، أفكارهم الحقيقية، ويقولون لها كم أن المهنة التي اختارتها مثيرة للاهتمام والحماسة. لكن كلماتهم ستخفي دوماً معارضة وازدراءً، وسرعان ما ستصبح عرضة للأقاويل. وسيتهامس الناس الأخبار عن وريثة مجموعة فنادق عالمية، وواحد من أفخم فنادق ريو دي جانيرو، «ديانا أوليفيرا المسكينة»، التي كانت في ما مضى قدوة شبان المدينة، وشاباتها، وموضع إعجاب من الجميع، والتي انتهت في مآل الأمر إلى أن تصبح كاتبة لا يقرأ كتبها أحد. وسيشعر أولئك الذين كانوا ليتخلّوا عن كل شيء ليحتلوا مكانها، بالشفقة نحوها وهم يفكرون في أنها ضيّعت حياتها هدراً...

لم تكشف ديانا لأحد أبداً أنها اختارت مهنة تلقى قبول الأناس الذين يعيشون من حولها فقط، لأنها لم ترد أن تحيا هذا السيناريو. وربما يقع الخطأ عليها في أن صديقتيها لم تعلما بحقيقة شعورها. لكن، ألم تحاول هي إطلاعهما على أحلامها وآمالها؟ بالطبع فعلت.

إلا أنهما، في كل مرّة حاولت، كانتا تحكمان عليها. بدا كما لو أنهما تعرفان ما هو الأفضل لها، وأغرقتاها دوماً بالنصح حول ما عليها فعله، وكيف تفكّر، بل حتى كيف تشعر. لم تحاولا أبداً فهمها.

كيف لها أن تواجه كونها متروكة وحدها في هذا العالم، في غياب من يتفهمها؟

قررت ديانا في النهاية، لتهدئة ذهنها المتعب، أن تقوم بالنزهة المسائية، التي طالما قامت بها مع والدتها، في المنتزه.

٧

لم يكن المتنزَّه مزدحما كثيراً. اقتربت ديانا بقدر ما يمكن من البحر، وسارت بمحاذاة الشاطئ.

كم مرّة مشت في ما مضى هي وأمها هنا معاً... كم من المرات؟ همست في سرها بأنها مستعدة للتخلي عن أي شيء، نعم أي شيء في مقابل تمكّنها من القيام بنزهة واحدة مع والدتها؟ مجرد واحدة وحسب...

سارت ما يقارب خمس عشرة دقيقة إضافية وهي تائهة في ذكرياتها. وما إن بلغت المرسى وسفنه الشراعية حتى عادت إلى المنزل.

هي في العادة تختار العودة إلى بيتها عبر الطريق المختصر الذي يقطع المنتزه، لأنها تتمتع في الغالب برؤية الأناس غير المألوفين على طول الطريق. أناس لوّنوا شعور رؤوسهم بألوان قوس القزح، ووضعوا أقراطاً في الأماكن الأقل توقّعاً في

أجسامهم؛ أناس يبحثون عن مساحة فارغة يزينونها بوشم إضافي آخر ولا يجدونها...

ازدحم الممر كالعادة بباعة التحف الرخيصة والزينة، وبالوشّامين، وبالموسيقيين المتجوّلين، والشحاذين.

كانت ديانا تسير بمحاذاة الشحاذين، عندما سمعت صوتاً عميقاً:

«أنتِ هناك، أيتها السيّدة الصغيرة!».

استرقت النظر من حولها وهي غير متأكدة من أنها المعنيّة، لكنها لم تر أحداً غيرها يتطابق مع هذا الوصف. ثم لمحت شحّاذاً طاعناً في السن يحدّق إليها. ناداها مرّة أخرى: «أنت هناك، أيتها السيدة الصغيرة!».

غالباً ما رأت هذا الرجل ذا الشعر المجعّد عند هذه الزاوية، يجلس متربّعاً على قطعة من حصير. وما جعله مختلفاً عن رفاقه الشحاذين، أنه لم يزعج المارة قط برغم أن عينيه السوداوين الصغيرتين كانتا تبحثان في شكل مستمر عن شيء ما بين الحشود. والفارق الآخر أنه كُتب على زاوية حصيره الرثّ: «قراءة الطالع: ٩ ريالات برازيلية».

دُهشت ديانا. فهي قد مرّت ربما مئة مرّة من أمام الشحاذ - قارئ الطالع هذا، ولم يناد عليها قط.

«أكنت تتحدث إليّ؟»، سألت الشحاذ وهي تشير إلى نفسها.

«هل تبحثين عنها؟».

«ماذا تقصد؟».

«هي!».

«من هي؟».

«إذا كنت لا تعرفين، فكيف عليّ أن أعرف؟».

«ماذا؟».

«هي، أقول!».

هزّت برأسها. فلا حاجة إلى المضي في هذا الحديث الغريب الذي لا هدف منه. ربما هو ينتظر أحداً ما للعبث معه، أو ربما يختبر وحسب طريقة جديدة في جلب انتباه زبون محتمل. ومهما يكن السبب، فهو كاف ليجعل ديانا تقرّر الابتعاد بأسرع ما يمكن.

أرادت أن تكمل طريقها كما لو أن أي كلام لم يدر بينهما، لكنها توقّفت عندما نادى عليها الشحاذ مرّة أخرى:

«انتظري أيتها السيدة الصغيرة، أنا على استعداد لقراءة

طالعك لقاء لاشيء. تعالي. ربما أطلعك حظّك على مكان وجودها».

«لا أعرف ما الذي تتحدّث عنه، كما أنني لا أريد أن أعرف».

ألقى الشحاذ في تلك اللحظة، بأسرع من طرفة العين، ما يشبه الرماد في كوب من الماء أمامه. وشرع يحدّق، في حين أخذ الماء يصبح رمادياً، ثم قال، «آه، يا إلهي! ماذا أرى، ماذا أرى؟ إنها تشبهك. تشبهك تماماً!».

جمدت ديانا حيث تقف.

«من التي تشبهني؟»، سألت وهي تبتلع ريقها بصعوبة.

«هذا أفضل بكثير، أيتها السيدة الصغيرة، تعالي واجلسي الآن».

فعلت ديانا ما طلبه منها.

حرّك الشحاذ الماء بسبابته قبل أن يمسح بطرفها وجه ديانا، وقال، قبل أن ينتظر رد فعلها، «هي تشبهك، أكنت تبحثين عنها أم لا. تشبهك تمام الشبه! العمر ذاته الطول ذاته، الحاجبان ذاتاهما، والعينان أيضاً...».

أحسّت ديانا بقشعريرة تنساب في جسدها. بالكاد عرفت

ماذا تفعل، أو تقول. لا بد من أن للأمر تفسيراً. فلا يوجد أمر اسمه قراءة الطالع، ولا قراءة الأفكار. ما من سبيل إلى أن هذا الرجل يتحدّث عن ماريا.

ولتثبت أنه ليس إلا مجرّد مخادع، سألته: «أين هي، إذاً؟».

«ليست بعيدة كثيراً».

«أين بالتحديد؟»، سألت وقد رفعت صوتها.

أمسك الشحاذ بيدها وسكب قليلاً من الماء المتسخ في راحتها. وبعدما تفحّصه بانتباه لمدة دقيقة، قال تأتي من البعيد البعيد إلى القريب. وسرعان ما تمضي إلى ذيّاك البعيد. لكنها تعود مرة ثانية.

ثم رفع رأسه وثبّت نظره على شيء ما في الجانب الآخر من الطريق. استدارت ديانا لترى ما الذي ينظر إليه.

كان، على بعد نحو ٢٠ ياردة أمامهما، فنان شوارع يراقبهما. وعندما أدرك أنهما يتطلّعان إليه، عاد سريعاً إلى لوحة كان يرسمها. قلبت ديانا شفتيها ويديها معاً، إشارة إلى الحيرة والتساؤل، لكن الشحاذ أكمل كلامه.

«تلك الفتاة التي تشبهك تمام الشبه»، قال، «ستلتقي هذا الفنان في يوم من الأيام».

قفزت ديانا على قدميها. فقد كان جلوسها هنا خطأً أصلاً، فلماذا تبقى. واضح أنه يعبث بها. وجب عليها أن تدرك ذلك منذ فترة طويلة. فثمة، منذ البداية، تعبير من التسلية الماكرة على وجهه المتجعّد.

صرخ الشحاذ بديانا، وهي تهرع مبتعدة، «اقرئي. افتحي ما هو مكتوب واقرئي».

«افتحي واقرئي». انطلقت هاتان الكلمتان كالسهم الغدّار خلف ديانا المنسحبة.

هل هذه مصادفة أيضاً؟ هل لذلك الكلام علاقة برسائل ماريا التي لم تفتحها قط، ولم تقرأها. دخل رأسها في دوامة، لكنها مضت هذه المرة بدون أي التفاتة إلى الوراء.

أرادت بلوغ المنزل سريعاً، وترك ذلك كله وراءها. لكنها، لمْ تعرف لمَ خففت لاشعورياً من سرعة خطواتها وهي تمر بفنان الشارع الشاب. ألقت، وهو يقف مواجهاً رسمته، نظرة سريعة على الشاب الأشعث الشعر لترى هل تتمكن من إعطاء معنى لما قاله الشحاذ.

بدا الفنان، ربما أكبر منها ببضع سنوات. كان طويل القامة، صحيح البنية، أسمر البشرة. شعره بنّي غير مرتّب. يرتدي تي ـ شيرتاً كستنائية، وجينزاً أزرق تمزّق من رثاثته

على الركبتين. خفّاه مغبرّان ومتسخان كثيراً، إلى حد لا يمكن التكهّن بلونهما.

أسند لوحاته المعروضة للبيع إلى السياج الحديدي المحيط بشجرة النخيل المجاورة. وهي كلها تتعلّق بموضوع واحد: السماء، البحر... والنورس في كل منها. وقد عُلّقت على كلّ منها بطاقة بسعرها البالغ ١٥٠ ريالاً برازيلياً. وبرغم أن نوعية الطلاء بدت رديئة، فإن اللوحات نفسها مغرية.

انتبه الفنان إلى تفرّس ديانا، وعيناها تنتقلان متفحصتين منه فإلى لوحاته ثم إليه. أدار عينيه البنيتين صوبها: «كيف يمكنني خدمتك؟».

«آه، أنا أتفرّج وحسب».

«لكن، هل يمكنك الرؤية؟».

«أستميحك عذراً؟».

«حسناً، هل أعجبتك اللوحات؟».

«أحب انتقاءك طبقة الألوان».

لاذ الفنان بالصمت.

قالت ديانا، التي توقعت كلمة شكر على الأقل على إطرائها: «حسناً، الوداع إذاً».

بالكاد قام الفنان بإيماءة. وانصرف إلى لوحته من جديد بدون أن ينتظر رحيل ديانا.

لم تكن ديانا لتبالي بسلوك فنان شارع. إلا أنها، وهي تبتعد بخطى وئيدة، لم تستطع إلا التفكير في مدى غلاظة تصرّفه، وكم بدا مغيظاً.

٨

جلّ ما بقي من الفراشة التي كانت تطير في أنحاء الغرفة، سحابة خفيفة من الدخان حول المصباح، ورائحة احتراق ضعيفة. تساءلت ديانا، وهي تنظر إلى عمود الدخان، عمّا دفع بالفراشة إلى إلقاء نفسها في الضوء.

خمنت ديانا أنها ربّما تبعت دعوة غريزية إلى الطيران بعيداً عن العتمة. ولا بد من أن العجلة التي طارت بها تشكّل تمرّداً على الظلمة التي كانت تلفّها، وعصياناً على عدم اليقين. اختارت الذوبان في النار على الطيران طوال حياتها في الظلمة.

أوَليس فتح رسائل ماريا وقراءتها أشبه بالفراشة التي ترمي بنفسها في النار؟ هل يشكل ذلك هروباً من الظلمة التي سقطت فيها، من خلال تجاهلها أمنية والدتها الأخيرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل عليها، للتخلص من مثل هذه الظلمة

وعدم اليقين وعدم الولاء، مواجهة خطر الاضمحلال كالفراشة؟

لم تعد ديانا تعرف بماذا تفكّر. لم تعرف لمَ هي أصلاً في الظلمة، وكيف انتهى بها المطاف هناك، ولا على من يقع الخطأ... أهو خطؤها هي، في أنها لم تعمل على تحقيق أمنية والدتها؟ أم خطأ والدها لشقّه العائلة إلى شطرين؟ ربما يجب أن يقع اللوم على ماريا، لأنها هي التي بعثت بتلك الملاحظة الأنانية إلى والدتها؛ أو ربما يجب لوم الله الذي أخذ والدتها منها؛ وربما تقع الملامة على الجميع، وربما على لاأحد...

لم تعرف الجواب، لكنها أحسّت، برغم ذلك، بأن زمام حياتها أفلت منذ زمن من يديها. بدا كما لو أن أحداثاً أبعد من سيطرتها تحدد أفكارها، ومشاعرها، وأعمالها؛ كما لو أن القرارات المتعلقة بحياتها تؤخذ في مكان ما، في بقعة غير معروفة، ويتم تطبيقها بدون معرفتها أو موافقتها.

أهو القدر؟

لو أنه كذلك، فهل يعني هذا أن الكلمات الغريبة التي تفوّه بها الشحاذ الذي لم يسبق أن تحدث إليها من قبل، هي أيضاً جزء من ذلك القدر؟ ولو أنها قامت الآن، وفتحت رسائل ماريا وقرأتها، أفسيكون ذلك بمحض إرادتها الحرة؟ أم أنها ستكون

أطاعت وحسب أمراً آخر من أوامر قدرها الذي يجرّها صوب المجهول؟ ربما الاثنان سيّان. فهي حقاً لا تعرف.

لكنها عرفت أخيراً أمراً واحداً، وهو أنها احترمت قرار تلك الفراشة... حتى وهي تذهب طوعاً إلى... حتفها.

نهضت ديانا فجأة. سارت مباشرة إلى علبة جواهر والدتها، أخذت مفتاح الصندوق العتيق ومضت إلى الغرفة الموجود فيها. فتحت الصندوق، فوجدت رسائل ماريا ملفوفة بقطعة من القماش. حملت الرزمة وعادت بها إلى غرفة المعيشة.

جلست على الأرض وظهرها يستند إلى أحد الكراسي، وحلّت قطعة القماش. في داخلها أربعة مغلّفات كبيرة، وآخر أصغر حجماً فيه رسالة ماريا الأخيرة إلى أمها؛ وكلّها ذات ألوان مختلفة، وقد رُقمت المغلفات الكبيرة كلها بخط أمها بحسب ترتيب تسلُّمها لها.

ألوان المغلفات كانت، بالترتيب: الأحمر، والأخضر، والأبيض، والفضي. لاحظت أن الأول مُرسَل من ساو باولو، بينما الرابع والآخر ذو المظروف الأصغر حجماً، عليهما خاتم بريد ريو دي جانيرو.

يبدو أن ماريا قد جاءت إلى ريو دي جانيرو. هكذا

خمنت ديانا. استذكرت فجأة كلمات الشحاذ العجوز: «تأتي من مكان بعيد جداً»، قال. «هي ليست بعيدة».

لو أن ماريا جاءت إلى ريو دي جانيرو، فلماذا لم تأت لرؤية والدتها؟ أمن الممكن أنها لا تزال هنا؟ هل تقيم في ساو باولو؟

لاحظت ديانا، وهي تتصارع مع هذه الأسئلة، أن المغلف الفضي ـ المغلف الرابع ـ فارغ. وزاد من تشوشها التساؤل حول مكان الرسالة التي كانت موجودة فيها.

لم يبارحها الأمل لحظة بالعثور على أجوبة ما، فشرعت في القراءة عبر الرسائل. ثم إنها انتقت الأولى وشرعت في قراءتها بإمعان للمرة الثانية.

الرسالة الأولى: «مخالفة الآخرين»

«١٤ شباط/فبراير،

أمي الحبيبة،

البرق يومض في الخارج، والرعد يهدر. يذكّرني ذلك بالليالي التي كنت فيها أتكوّر في سريري وأنا أرتعد خوفاً، باحثة عن ملجأ على صدر أم.

وأنا على وشك أن يغلب عليّ غيابك مرّة أخرى، جاء والدي إلى غرفتي معترفاً بأنك حيّة! سلّمني عنوانك قائلاً أن بإمكاني مراسلتك.

فجأة، أصبحت العاصفة في الخارج صديقة لي، وصارت ومضات البرق أضواء آلة تصوير تصوّر فرحي. «أخيراً»، قلت في نفسي، «أخيراً، سألتقي بأمي!».

نعم يا أمي، إنه أمر لا يُصدَّق، لكنه حقيقي. فسعيي وراءك، الذي بدأ منذ وقت طويل جداً، على وشك الوصول إلى خاتمة سعيدة. سآتي لزيارتك بعد فترة شهر بالتمام!

التفكير في اللقاء بك بعد هذه السنوات الطويلة جداً، يملأني بسعادة لا توصف. إلا أنني أشعر بأن سعادتي غير مكتملة لأنك لا تعرفينني حق المعرفة.

شرعت أخيراً في كتابة رواية تساعدني على تقديم نفسي إليك، تستند إلى الأمور التي اختبرتها في بحثي عنك. آه أمي، لو تعرفين ما الذي عانيته في بحثي الذي لا ينقطع. خالفت الآخرين. عبرت أحد المحيطات، بل حتى أنني تحدّثت إلى إحدى الورود!

أتمنى لو يمكنني أن أرسل إليك على الفور نسخة عن روايتي، لكنها لم تكتمل بعدُ. ورغم ذلك أود أن أشاطرك

فيها. قررت، لإعطائك فكرة عنها، أن أبعث إليك برسائل أسبوعية أخبرك فيها عن مراحل بحثي المختلفة.

أطلقت على هذه المراحل أسماء: «المخالفة»، «السبيل»، و«الفناء». أما المرحلة الرابعة، «البعث»، فستبدأ ما إن يلتئم شملنا.

دعيني أبدأ برواية قصتي مع مرحلة «المخالفة»...

كنت صغيرة جداً عندما طرحت على نفسي هذا السؤال: «لماذا ليس لديّ أم؟».

لكنني لم أتمكن من إيجاد جواب. وقد خضت المستحيل من أجل أن أروي ظمئي إلى معرفة دليل يوصلني إليك، لكنني كنت دائماً أحصد الخيبات مهما بذلت في سبيل ذلك من جهد.

لكن إذا كان ثمة سؤال، فلا بد من وجود جواب. وأنا لم أكن على درجة كافية من العمر، بالتأكيد، لأفكر بهذه الطريقة؛ لكنني في ذلك الوقت، كنت أتابع الإصغاء إلى صوت قلبي.

قال قلبي «لا تسألي لماذا ليس لديك أم؟ بل اطرحي السؤال الصحيح: أين أمي؟ اطرحي هذا السؤال على شخص يعرف».

شخص يعرف... شخص يعرف... شخص لديه المعرفة... والدي!

سألته «أبي، أين أمّي؟».

بعد تردد للحظة، قال «والدتك عند الله، يا طفلتي».

لا بدّ من أن هي الحقيقة إذاً، لأن الله يعيش في أفضل مكان، وكذلك تستحق أمي أيضاً المكان الأفضل.

وهكذا، أصبح سؤالي التالي هو «أين الله؟». نظر إلي والدي كما لو أنني طرحت أغرب سؤال في العالم. ثم أجاب: «لا أعرف».

لكنني لم أيأس، وقد امتلأت أملاً في أن آخرين ربما يعرفون مكان وجودكِ، فسألتهم، «أتعرفون أين أمي؟».

«أمك لا وجود لها»، قالوا.

وعدت وسألت، «ماذا يعني ذلك؟».

«في الحقيقة لقد ماتت، لم تعد موجودة معنا».

كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ هذا الأمر، موتك أنت، كونك «لست هنا». كيف يمكنه الإيحاء بغيابك في وقت أشعر فيه بوجودك بهذا القدر من القوة؟ مرة أخرى تحدّث إليّ قلبي: «تشعرين بحضور أمّك. إذاً، يجب أن تكون موجودة».

قصدت الآخرين وقلت «والدتي حيّة!».

أعطوني جواباً مختلفاً: «والدتك في مكان ما، بعيد جداً».

لم أقتنع بذلك أيضاً، لأنني شعرت بأنك قريبة جدّاً.

ثم جاؤوا أيضاً بجواب مختلف: «يمكنك أن تري والدتك في العالم الآخر فقط».

لا! لا بد من وجود جواب آخر.

«سأذهب إذاً وأبحث عن الله»، قلت في نفسي. وسألت الآخرين هل يعرفون مكان وجوده. فإذا أمكنني معرفة مكانه، فسأعرف مكان وجودكِ. إلا أنني سرعان ما اكتشفت أن وجهات نظر الناس حول الله شديدة التشويش. بعضهم قال «الله، لا وجود له»؛ والبعض اعتبر أن «الله في مكان ما بعيد جداً»؛ وآخرون همسوا «يمكنك فقط رؤية الله في العالم الآخر».

مرة أخرى، لا بد من وجود إجابة! لكن هذه الأجوبة أظهرت، أقلّه، أنني في الطريق الصحيح. فالتشابه الواضح بين إجابات الآخرين عن سؤالَي «أين الله؟» و«أين أمي؟»، أثبت أنك فعلاً مع الله. وتوصلت أخيراً، في الواقع، إلى إدراك أن مراحل بحثي عنك ليست مختلفة كثيراً عن مراحل بحثي عن الله. وهي ذاتها، في الواقع.

وهكذا، يا أمي، حاول الآخرون مع مرور الوقت، إلهائي عنك، وقد رأوا أن كياني كلّه مشغول بك. أعطوني الكثير من الدمى واللُّعب. ألهتني هذه لبعض الوقت، إلا أنني سرعان ما تعبت منها. قدّموا إلي أخرى جديدة: لُعباً أكثر جاذبية، وأغلى ثمناً، وأشد إثارة...

أعتقد أنني ربما كنت سأبقى متسليّة بقية حياتي إذا تم على الدوام تجديد ألعابي، وإذا قُدّمت إلي دوما ألعاب أفضل. لكن، لا، لم يكن هذا ما أريده فعلاً. كل ما أردته هو أمي!

أيُّ لعبة قد تفرحني إذا كنتِ أنتِ غائبة؟ أما إذا كنت معي، فأي افتقار إلى لعبة يمكنه أن يظلّل سعادتي؟

وهكذا، أمكنني الهروب من فخ الألعاب، لكن لم يمر وقت طويل حتى تم اعتراض بحثي من جديد. دعيني أشرح، يا أمي...

كنت قد أخذت أكبر، وبدأت براعم أنوثتي تتفتح. وقد حزت اهتماماً أكبر من الآخرين. ومن سوء الحظ، أنهم أُعجبوا بي كثيراً. أقول «من سوء الحظ»، لأنني سرعان ما أدركت أن إعجابهم ورغبتي في الحفاظ عليه، أوقفاني عن متابعة حلمي الأكبر بالعثور عليك.

شعرت بأنني إذا واصلت طرح الأسئلة عنك على

الآخرين، فسيتحوّلون عنّي سريعاً. لهذا، تخلّيت في النهاية عن بحثي عنك، وتركت نفسي، بدلاً من ذلك، تستمتع باستمرارية إشراقة ابتساماتهم.

استمر الآخرون يمطرونني بسهام مديحهم وهيامهم، وهي سهام سامة على ما أدركته لاحقاً. يقولون «أنتِ مميزة... ما من أحد مثلك في العالم كلّه». وتدفّق سم سهامهم الحلو في دمائي وهم يتفوّهون بأمور مشابهة.

لا أزال، أحياناً، أشكّ في صدق كلماتهم. وغالباً ما أسأل نفسي «أأنا مميّزة حقّا؟». لكن بما أن الآخرين هم الذين جعلوني أعتقد ذلك، لم تمكنني الإجابة عن السؤال بدونهم. بدا كما لو أن مرآة نفسي قد تحطّمت ولا تمكنني رؤية ذاتي إلا من خلال انعكاس كلماتهم.

سعيت إلى أن أكون برفقتهم طوال الوقت. وهكذا، كلما أخذت أسأل «هل أنا حقاً مميزة؟»، كنت أسمع جوابهم الذي لا يتغيّر «أجل، أنت بالتأكيد متميّزة. ما من أحد مثلك في العالم كلّه!».

لم أتعب أبداً من طرح السؤال ذاته، أو من سماع الإجابة عينها، المرة تلو المرّة. وكما أن المياه المالحة تزيد من عطش من يشربها، هكذا زادت ثناءاتهم وحسب من حاجتي إلى سَماعها.

والأسوأ هو أنني، حتى لا أخسر رضا الآخرين، شعرت بأنني ملزمة أن أحيا بحسب توقّعاتهم. وسرعان ما أدركت أنني أعيش الحياة التي اختارها غيري لي، وليست تلك التي لطالما حلمت بأن أعيشها.

ومرّة أخرى، حدّثني قلبي: «أنت تعيسة، يا ماريا».

هذا صحيح. خاب أملي بنفسي إلى درجة أن إعجاب الآخرين لم يعد يثير فيّ أي متعة. إلا أن تعاستي هي التي أعادت إلي في النهاية القوة التي أحتاج إليها للاستمرار في بحثي عنك.

«أين أمي؟»، سألت الآخرين بصوت مرتفع.

أعطوا الإجابات القديمة ذاتها:

«أمك غير موجودة»؛ «إنها في مكان بعيد جدّاً»، «لن تتمكني من رؤيتها إلا في العالم الآخر».

«لا!»، قلت. «ليس الأمر ما تعتقدون».

«هذا ما سمعناه من الآخرين».

«وماذا لو أن الآخرين على خطأ».

«انظري من حولك، فأنت لا تستطيعين رؤية والدتك، أو الله. لو كُتب لك أن تريهما في هذا العالم، لالتقيتهما بهما بالتأكيد».

«لو أنني استخدمت عيني فقط للرؤية، لتهت في عالمكم المظلم».

«هيّا، كوني حكيمة، فأنت فتاة كبيرة الآن».

«كلا، أنا صغيرة»، قلت. «وسأبقى دوماً كذلك!»

لكن هذه المخالفة لم تكن كافية وحدها لحملي إليك، يا أمي. كان علي العثور على السبيل. بدأت المرحلة الثانية من بحثي عندما أظهرتِ لي، في الحلم، السبيل المؤدي إليك. أبلغتني أين يمكن أن أجد ذلك الشخص الذي يعرف. وهذا الشخص، في وقت لاحق جداً من الحياة الحقيقية، سيأخذ بيدي ويسير بي في السبيل الذي أظهرته إلى أن يلتئم شملنا في هذا العالم.

آمل أن أخبرك بكل شيء عن هذا الحلم في رسالتي التالية.

مع كل محبتي...

ماريا».

٩

سارت ديانا بخطوات سريعة عبر العشب إلى القبر، مرتدية البزة الكتانية الخضراء التي طالما أحبت أمها أن تراها تلبسها. كانت قد اقتربت كثيراً. شاهدت شكلاً ذا شعر كستنائي طويل يقف إلى جانب شاهد قبر أمها، وهو الشاهد الوحيد الموجود تحت شجرة الدلب العملاقة، بحيث لا يمكنها أن تخطئ مكان القبر. اليوم ليس يوماً مميزاً بأي شكل، فمن تُراها تكون تلك الزائرة في وقت مبكر جداً من النهار؟

هل يمكن أن تكون ماريا؟

تردّدت في المضي قدماً، وراقبت لبعض الوقت الزائرة غير المتوقعة.

«ممَّ تخافين؟»، قالت موبّخة نفسها، وشرعت في السير صوب القبر. أمكنها الشعور بقلبها يخفق بقوة. كانت خطوات

قليلة كافية لجعل نَفَسها ينقطع، لكنها لم تتوقف. وبرغم أنها كادت تبلغ القبر، لم تلتفت الزائرة لتلقي نظرة.

اقتربت ديانا أكثر فأكثر. لمحت وجه الزائرة. انفرجت أساريرها حين عرفت أنها السيّدة ألفيس، رفيقة أسفار والدتها. المرة الأخيرة التي رأتها فيها ديانا كانت في المأتم. وبرغم أنها واحدة من أقرب أصدقاء والدتها، فإن الفرصة لم تتح لهما التلاقي كثيراً، لأن السيدة ألفيس تقيم في ساو باولو.

ربّتت ديانا برفق على كتفها: «أنا سعيدة لرؤيتك يا سيدة ألفيس».

«آه، ديانا، كيف حالك؟»، سألتها السيدة ألفيس وهي تعانقها. «أما زلت بخير يا عزيزتي؟ اتصلت بك هاتفياً مرات عدة، لكنني لم أجدك. تركت لك رسالة مع مدير الفندق. قال إنك بخير، لكن...».

«آسفة جداً لأنني لم أعاود الاتصال بك، يا سيدة ألفيس. أشعر بأنني في حال أفضل الآن».

أومأت برأسها صوب الورود الصفراء التي جلبتها السيدة ألفيس لأمها: «يا لجمالها».

أظهرت عينا السيدة ألفيس موافقتها.

«ديانا، لدي موعد ساعة الغداء، وسأعود إلى دياري بعد ظهر هذا اليوم. لكن، إذا أردت المجيء فسأكون سعيدة جداً في اصطحابك».

«شكراً يا سيدة ألفيس، أقدّر لك ذلك، لكن ثمة أموراً عليّ إنجازها هنا».

«كما تشائين يا عزيزتي، لكن لا تنسي أننا نسعد دوماً برؤيتك...». سادت بينهما لحظة صمت طويلة، أخذت بعدها السيدة ألفيس بيد ديانا: «الآن، كوني صادقة معي يا ديانا. هل أنت بخير؟».

لم تستطع ديانا أن تكبت حزنها. التعبير الصامت على وجهها، فضحها، ووشى بها، كما لو أنها تقول: «كيف يمكن أن أكون؟»

«لا أدري يا ديانا إذا كنت تحتاجين إلى سماع ذلك مني، لكن دعيني على أي حال أقل: لطالما كانت أمك فخورة بك».

«لم أكن حقيقة مستعدة للأمر، يا سيدة ألفيس. حدث كل شيء بسرعة. كان كل شيء على ما يرام منذ خمسة أشهر. حتى وهي مريضة. لم تتصرّف أمي قط كما لو أنه لم يبق لها سوى أشهر قليلة على قيد الحياة. لم تترك نفسها قط تنهار أو

تفقد ذلك البريق في عينيها. لم تسأل ولا حتى مرّة واحدة: لم أنا؟».

امتلأت عينا ديانا بالدموع.

«لكنني لا يمكنني أن أكون مثلها، لا أستطيع. عندما أفيق في كل صباح، أطرح على نفسي السؤال ذاته: لمَ هي؟ لماذا يجب أن يحصل ذلك لوالدتي؟ لم تكن مجرّد أم، بل كانت الضوء الذي يشع على جميع من حولها».

«كانت كذلك»، قالت السيدة ألفيس.

«لكنني لم أدنُ قط من ضوئها، لم أحاول قط أن أستنير منها... وما إن أصبح في وسع الأمور أن تتغير، حتى رحلت».

«تتغيّر؟».

هزّت ديانا برأسها علامة الإيجاب.

«منذ بعض الوقت، وأنا أشعر بأنني أحتاج إلى رؤية الحياة من خلال عيني أمي. احتجت إلى اكتشافها، إلى أن أكون مثلها. أردت أن أجد حلاً للغز في ما وراء نظرتها، وكلماتها، وأسلوب حياتها... امتلكت كنزاً دفيناً في داخلها، لم يمكنني بلوغه».

استحضرت ذكرى مفاجئة ابتسامة خفيفة إلى شفتي ديانا. «أحياناً... كنت أكيدها وأغيظها ممازحة. وأقول هيّا يا أمي. لو أنك تعتقدين أنني أمتلك أنا أيضاً كنزاً، فلماذا لا تعطيني مفتاحه. وكانت تُظهر لي يديها الفارغتين وتقول، ليس معي. لا أحد يملكه إلا أنت».

أطلقت ديانا تنهيدة عميقة. «احتجت إلى ذلك المفتاح، يا سيدة ألفيس. احتجت إليه. أردت أن أكون مثل أمي. وددت، على الأقل، أن أستحقها. أتعرفين بما أشعر أحياناً؟ أتمنى لو أنها لم تتركني أمضي في طريقي الخاص، أو ارتكاب أخطائي. أود لو أنها لم تقبلني كما أنا. لو أنها حاولت، على غرار بقية الأمهات، أن تجعلني مثلها. أردت أن أكون ابنة أمي، يا سيدة ألفيس. . . أردت ذلك فعلاً».

احتضنت السيدة ألفيس ديانا التي أخذت تجهش بالبكاء.

«آه يا ديانا، أنت ابنة أمك. أنت تشبهينها كثيراً. لم أعرف ابنة تشبه أمها بهذا القدر. لا تشكّي في ذلك. ربما لم يتسنّ لي الظرف لقضاء المزيد من الوقت معك. وقد يبدو الأمر كأنني أحاول مواساتك وحسب، لكن صدّقيني، فأنا أعرفك تمام المعرفة يا ديانا. عرفت الكثير عنك من والدتك التي عرفتك أفضل مما تعرفين نفسك».

توقفت ديانا عن البكاء، وسألت بلطف: «ما الذي قالته أمي عنّي؟».

«في السنة الماضية، إبان رحلتنا معا إلى الاسكندرية، تحدّثت كثيراً عنك. أخبرتني كم أنك تشعرين بعدم الاكتفاء، وأنك لم تعودي راضية بما لديك، وأنك تصبحين مع كل يوم أكثر فأكثر تعاسة».

«نعم»، تمتمت ديانا حانية رأسها. «هذا صحيح، فمنذ سنة مضت أخذت أشعر بهذه الطريقة. لكنني أعتقدت أنني نجحت في إبقاء مشاعري طي نفسي. لم أُرد لوالدتي أن تحزن، خصوصاً أنه ما من سبب حقيقي لتعاستي. لكنني أعتقد أنها، كما دائماً، استطاعت رؤية ما يعتمل في داخلي. وأتساءل لماذا لم تفاتحني بأي شيء؟ كم بلغ الحزن الذي يجب أن تكون شعرت به...».

«الحزن؟ لا أعتقد أنها الحالة على الإطلاق»، قالت السيدة ألفيس. «كانت عيناها متقدتين عندما أبلغتني».

«متقدتان؟».

«نعم، بدت سعيدة جداً في شأن ذلك. بل إنها قالت «أعتقد أن ابنتي تصبح أكثر فأكثر تعطّشاً إلى أمطار تشرين الأول/أكتوبر». وقد أخذت في الواقع تفكّر في دعوتك إلى الانضمام إلينا في رحلتنا التالية».

«أمطار تشرين الأول/أكتوبر؟ تقصدين تلك الرحلات التي اعتدتما القيام بها في شهر تشرين الأول/أكتوبر من كل سنة؟ تلك الرحلات الغامضة؟».

أومأت السيدة ألفيس برأسها موافقة.

«لطالما أثارت فيَّ حب الاستطلاع»، قالت ديانا. «أردت في كل مرّة الذهاب معكما، لكن أمي لم تكن تسمح لي. وفي كل مرّة كنت أسألها، بعد عودتكما، أي شيء عن تلك الرحلات، وكان جلّ ما تقوله هو «استمعنا وتجدّدنا»».

تطلّعت عينا ديانا إلى السيدة ألفيس باستعطاف. «لم يشكل الأمر، في مرحلة ما، أكثر من حب للاستطلاع، إلا أنني أخذت، منذ سنوات قليلة مضت، أشعر بوجود ما هو أكثر في تلك الرحلات، كما لو أنها مصدر نور أمي. أشعر بأنني كنت سأعرف أمي بطريقة أفضل لو عرفت أكثر عن تلك الرحلات. وأنت الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتي في هذا يا سيدة ألفيس. أرجوك، هل يمكنك أن تقولي لي ما فعلتماه في الاسكندرية؟ أو في أثينا، أو القدس، أو فاس، أو سوراباي...».

أشاحت السيدة ألفيس عينيها عن ديانا. بدا عليها الأسف لأنها تطرقت إلى هذا الموضوع.

«لطالما أُعجبت بمدى روعة والدتك في التعبير عن نفسها، يا ديانا. فهي تضع الأمر في أجمل طريقة ممكنة: استمعنا وتجدّدنا».

عرفت ديانا أن لا فائدة من الإصرار. «أرى ذلك... لكن هل في إمكاني طرح سؤال آخر؟».

«آمل ألاّ يكون بصعوبة السؤال الأخير»، قالت السيدة ألفيس وهي تبتسم.

«أين أمي، يا سيدة ألفيس؟ أين هي؟ أريد أن أعرف ماذا حلّ بها. وأنا على يقين من أنك تمتلكين جواباً عن السؤال أفضل مني».

قالت السيدة ألفيس، بعد لحظة صمت، «أتذكرين يا ديانا في المرة الأولى التي التقيت فيها والدتك، وكنت تطرحين عليها السؤال ذاته المرّة تلو الأخرى. تسألين أين والدك. ووالدتك العزيزة تعطيك دوماً الجواب ذاته، والدك عند الله، يا طفلتي».

ما إن سمعت ديانا هذا الجواب حتى أدركت أن السؤال الذي طرحته للتو على السيدة ألفيس هو السؤال ذاته بالضبط الذي كانت ماريا تطرحه طوال تلك السنين. تساءلت لماذا أجابتها السيدة ألفيس عن سؤالها بهذه الطريقة. وبما أن ديانا

ليست متأكدة من أن هذه السيدة تعرف الحقيقة في شأن والدها أو لا، فقد امتنعت عن ذكر ماريا لها.

«قد يواسي الناس طفلة فقدت والدتها بقولهم، إنها عند الله. لكنني لست طفلة، يا سيدة ألفيس، ويمكنك إطلاعي على الحقيقة. أرجوك، لم تعد أمي موجودة، أليس كذلك؟».

«الكلام الذي يقال لمواساة طفلة ليس دائماً خاطئاً يا ديانا. فأينما كانت والدتك قبل أن تموت، فإنها هناك الآن... عند الله».

خفضت ديانا ناظريها.

ربّتت السيدة ألفيس برفق على كتف ديانا: «سأدعك لبعض الوقت وحدك مع والدتك، يا عزيزتي. لكن تذكّري، أن لك مكاناً في منزلنا».

عانقتها ديانا: «أشكرك يا سيدة ألفيسس. سآتي لزيارتك ما إن أتمكن من ذلك. أتمنى لك رحلة عودة موفقة».

١٠

ما إن أصبحت السيدة ألفيس بعيدة عن سمعها، حتى جلست ديانا عند حافة القبر. شبكت يديها على صدرها وصلّت لفترة بصمت. واستمرّت في التحدّث إلى والدتها وهي تعرف أنها لا تسمعها.

«أمي، هل سمعت ما قالته السيدة ألفيس؟ قالت إنني أشبّهك أكثر مما تشبه أي فتاة أخرى والدتها. يا لها من إنسانة عذبة، إلا أنني افترض وجود بعض الأمور التي لا تعرفها...

«أردت أن أقول لك، إنني ألقيت، في الليلة الماضية، نظرة على رسائل ماريا، لكنني وضعتها جانباً من جديد. لقد فكّرت في القيام بما وعدتك به، برغم أنه قد يكون فات الأوان. إلا أنني لم أتمكن يا أمي. لا تسأليني عن السبب، فأنا لم أستطع وحسب.

«لكنني أتساءل عن أمر واحد... حائرة أنا مما فكّرتِ فيه

عندما قرأتِ رسائل ماريا. كلتانا فكرت في الأمر ذاته، أليس كذلك: ماريا مريضة نفسية؟ أعرف أنك قلت لي إنها فريدة من نوعها، لكنك فعلت ذلك حتى لا أمتنع عن البحث عنها، أليس كذلك؟

أرغب حقاً في معرفة ماذا عنيت فعلاً بكلمة فريدة. وعلى حد علمي، فإن هذه العبارة تعني شخصاً لا مثيل له. تعني أنه لا مثيل له في العالم كلّه. لكنك لم تستخدميها بهذا المعنى، أليس كذلك يا أمي؟ لم تشعري بأن ماريا تستأهل أكثر مني أن تكون ابنتك، أهذا صحيح؟

«لا يمكن ذلك أن يكون صحيحاً بأي شكل من الأشكال. فماريا مختلّة. ألم تقرئي رسالتها الثالثة؟ كيف لها أن تسمع الوردة تتنفس، والنسيم يهب عبر غرفتها، والنور يشع في كل مكان... وماذا عن الحديث الذي أجرته مع الوردة؟ إذا لم تكن هذه أعراض المرض النفسي، فماذا تكون؟ هذه ليست إلا هلوسات. ثقي بي يا أمي، لقد درست ما يكفي من علم النفس لأعرف ذلك.

«على أي حال، فإن الأمور التي تقولها في رسالتها الأولى، والأمور التي حققتها وهي طفلة، هي في حد ذاتها كافية للإقرار بأنها ليست طبيعية. أيمكن لطفلة في ذلك العمر أن تمتلك مثل هذا الإدراك للحياة؟

«وماذا عن الحلم الذي تصفه في رسالتها الثانية؟ لنفترض أنك قلت لها، في حلمها، أن تذهب إلى حديقة ما، وتلتقي شخصاً معيناً، وتتحدث مع وردة ما. . . وأن تنطلق بعد ذلك بسنوات طويلة وتفعل ما قلتِ لها بالضبط، وتعثر على الشخص الذي تحدّثتِ عنه. . . والأكثر من ذلك، تتعلم منه كيف تتكلّم مع الورود! أيمكن هذا كلّه أن يكون حقيقياً؟

«على العموم، لا تقلقي في شأن ماريا يا أمي. ربما الحياة أكثر سهولة للشخص الذي لا يتمتع بصحته العقلية. لا تقلقي في شأني أنا أيضاً. فربما أتألم لأنني لا أزال صحيحة، ربما لا يمكن إقناعي بأنني لم أفقدك، وربما لا يمكنني الامتناع عن التفكير في أنك لم تعودي موجودة... لكن، برغم ذلك كله، لن أُصاب بالجنون يا أمي. لن أحاول الهروب من الواقع، ولن أخلق عالماً خيالياً لنفسي. لأنني فتاة كبيرة، وسأبقى كذلك دوماً!».

نهضت ديانا. وأضافت: «سأقهر، في يوم من الأيام، هذا الألم كله، وأنجح في أن أكون ابنتك».

١١

أمضت ديانا، معظم النهار، نائمة بعد عودتها من المقبرة. وبقيت تؤجّل الأمور كلها إلى يوم آخر برغم الأشياء الكثيرة التي عليها القيام بها: مدفوعات المصرف، التحضيرات للتخرج، بريد إلكتروني عليها الإجابة عنه... إلخ.

لم تشعر وحسب بالحاجة إلى القيام بأي شيء، إلا أن جلوسها وهي لا تفعل شيئاً لم يؤد إلا إلى زيادة الفراغ في داخلها. وقررت في مآل الأمر القيام بنزهة على طول الشاطئ.

كان المتنزّه أكثر اكتظاظاً مما كان عليه في اليوم السابق، إلا أنها عثرت على زاوية نائية يمكنها الجلوس فيها ومراقبة الأولاد يرمون فتات الخبز للنورس. وبعد مسيرة قصيرة جلست من جديد، لتراقب هذه المرة الشمس تغرق ببطء في المحيط.

سلكت مجدداً، عند عودتها إلى المنزل، الطريق المختصرة؛ أرادت أن تمر أمام الشحاذ، آملة أن يعطيها دليلاً على ما عناه بكلماته في اليوم السابق.

ها قد اقتربت من المكان الذي يجلس فيه الشحاذ. رأته لا يزال يتفحّص محيطه بالطريقة نفسها. توقّفت أمامه، وحدّقت مباشرة في عينيه. ولدهشتها، فإنه لم يلاحظها. وقام، بدلاً من ذلك، بإدارة رأسه في هذا الاتجاه وذاك، مراقباً المارة الآخرين كما لو أن الفتاة التي تقف في مواجهته الآن ليست الفتاة نفسها التي تحدّث معها قبل ذلك بيوم.

«مرحى، ألن تقرأ طالعي اليوم؟».

بدا كأن الشحاذ لم يملك أي فكرة من تكون.

«هل أعرفك؟».

«ألا تتذكّر؟ هذه أنا».

«أعرف أنك أنت. لكن من أنت؟».

استدارت ديانا على عقبيها، وقد أيقنت تمام اليقين أنه يعبث بها، وسارت مبتعدة.

كانت قد خطت بضع خطوات مبتعدة إلى الأمام، عندما لاحظت الفنان، المشغول في رسمه. إنه يرتدي القميص القديم ذاته والجينز الأزرق الذي رأته به أول مرة. لم تتمكن من رؤية فارق كبير في الرسم الذي كان يعمل عليه، سوى كتلة أكبر من الزبد المتطاير من الأمواج المتكسّرة.

«تبدين في حالة أفضل اليوم»، قال الفنان.

يا لها من طريقة مهذّبة للشروع في محادثة، خمنت ديانا. لكنها لم تستطع الامتناع عن التساؤل عن مدى السوء الذي بدت عليه في الأمس.

«ألن تنظري إلى الرسوم؟».

«بقدر ما يمكنني أن أرى، لم يتغيّر الكثير في الرسم الذي تعمل عليه».

«ألا يعتبر الازدياد في عنف الموج تغييراً؟».

«بالطبع»، قالت ديانا. «كانت اللوحة بالأمس مختلفة. كلّا! يبدو كأنني أنظر إلى لوحة أخرى الآن! واو! أنا مندهشة! لقد أمكنك، من خلال ضربات ريشة قليلة، أن تخلق عاصفة تكشف ما في داخل الموجة. واو، كم أنا متأثّرة!».

«أهي شبيهة بالتي لديك؟».

«عفواً؟».

«العاصفة التي فيك، تكشف جيّداً عما في الداخل أيضاً».

صُدمت ديانا من تعليقه، وهبطت كتفاها. «آسفة، لم أشأ أن أتطاول».

«لا بأس. ما الذي ترينه حقيقة في الصورة؟».

«حسناً... أرى أنك لم تُضف النورس الذي يطير في لوحاتك الأخرى».

«عليّ أن أعترف بأنكِ تتمتعين بشدة الملاحظة».

«إيه، الناس يقولون ذلك»، قالت ديانا.

بدا الفنان شخصاً يتمتع ببعض الثقافة برغم مظهره الرثّ وأسلوبه الفظ في الاستقبال.

سألته: «هل أنت طالب؟».

هزّ رأسه نافياً.

«أنهيتَ دروسك إذاً؟».

«كنت أدرس علم الاقتصاد إلى أن تخلّيت عن ذلك».

نظرت إليه ديانا، لتتساءل باستغراب: «لكن. لماذا؟».

«أدركت، قبل فوات الأوان، أنني لن أحسّن أبداً من رسمي باستماعي إلى أساتذتي في الاقتصاد».

«ألم يكن في وسعك العمل على لوحاتك بالإضافة إلى مواصلة الدراسة؟».

«ليس أنني لا أملك الوقت. المشكلة أن كل لوحة أنهيها تجعلني أشعر بأن سابقتها أفضل منها».

«أفضل بأي معنى؟»

«أنا، كأي فنان آخر، أرسم ما في داخلي على القماشة. إلا أنني أرى، مع كل يوم يمر، أن ألواني تخبو. ويمكنك ربما القول إنني تخلّيت عن المدرسة من أجل ألواني الأصلية».

عبّرت عينا ديانا عن موافقتها: «علي الاعتراف بأن هذه شجاعة كبرى». مدّت يدها إليه وقالت: «أنا ديانا».

اكتفى الفنان بمصافحتها.

ها هو يفعلها من جديد! تصرّف كأنها لا تعني له شيئاً. فهو لم يخبرها باسمه، كما أنه لم يتمتع باللباقة للقول إنه سعيد بمعرفتها. ولم تر فائدة من مواصلة حديث طال كثيراً مع شخص لا يكلّف نفسه إعطاء اسمه. تمتمت ديانا عبارات الوداع وغادرت قائلة إن لديها موعداً.

لكن ذهنها بقي، في طريق عودتها إلى المنزل، منشغلاً بما قاله عن الألوان التي تخبو. وفكّرت ديانا في أن تفتقد ألوان والدتها تماماً، كما افتقد الفنان مرّة ألوانه الأصلية.

١٢

لوّح الشحّاذ للفنان بعدما اختفت ديانا عن الأنظار. فقد ضيّع الرسام، في اليوم الذي سبق، وطرح عليه أسئلة عن الفتاة الجميلة الذي قرأ لها طالعها.

افترّ ثغر الشحاذ عن ابتسامة، وقال «اهدأ يا بنيّ. ما يحصل بيني وبين زبائني لا يبقى هنا، بل يطير بعيداً. اذهب واسأل السيدة الصغيرة بنفسك عمّا تريد أن تعرفه. ستأتي إلى هنا قريباً... ستأتي في الغد... لكن، انظر إلى نفسك وأنت تطلب المساعدة من شيخ فانٍ أخرق مثلي. فأنت شاب، وفنان، ومظهرك حسن كمظهري. لماذا تريد مني أن أفتن السيّدة الصغيرة؟».

بدا الفنان محرجاً بعض الشيء، وحاول الدفاع عن نفسه: «رأيتكما تنظران إلي، ومن الطبيعي أن أتساءل عن السبب».

«لا تثر ضحكي، يا بنيّ. هاتان العينان، الكبيرتان

كصحنين، رأتاها هناك آتية عبر الطريق، هاتان العينان اللتان تعلّقتا بها، لم تكونا عيني. أفهمت؟ لا حاجة إلى قراءة الطالع. أنت تمنيت أن تلتقي تلك السيدة الصغيرة في اللحظة التي رأيتها فيها. هل كذبت؟ إذا كنت أكذب فدع نورسك يزرق على رأسي المسكين العجوز!».

لم يعرف الفنان ما يقول، فقدّم بعضاً من الاعتذار. وغادر. أدرك أن ليس سهلاً انتزاع المعلومات من الشحاذ العجوز.

لكن، قبل ذلك ببضع دقائق بالتمام والكمال، عندما لوّح له الشحاذ بيده بابتسامة مرحّبة، عبرت ذهنه فكرة واحدة: لقد قرّر الشحاذ ربما الآن أن يقول شيئاً عن ديانا. سيجرّب الفنان حظه من جديد، ويزور الشحاذ الليلة.

١٣

وضع الفنان باحتراس، زجاجة عصير الفاكهة التي جلبها من برّاد سيارته الجيب، في وسط الحصير. فقد حذّره الشحاذ في الليلة السابقة من المجيء مجدّداً خالي اليدين. وطلب منه أيضاً الانتظار إلى أن يصبح المتنزّه أقل اكتظاظاً كي لا يُبعد زبائنه المحتملين.

«هل تقبل بضيف الآن وقد...».

«مكاني مفتوح دوماً لكل من لا يريد معرفة الكثير».

«حسناً، حسناً، لن أطرح الليلة الكثير من الأسئلة. لكنني أرغب في معرفة كيف عرفت أنها ستتنزّه اليوم من جديد. هل استخدمت قراءتك للطالع؟ وأنا في المناسبة، دعني أقلها منذ البداية، لا أحمل تسعة ريالات».

«لا أؤمن بقراءة الطالع»، قال الشحاذ. «يريد الناس أن يسمعوا عن مستقبلهم، فأقول لهم «ما الذي يفترض بي فعله؟ أن أقول لهم لا تسألوني، بل اكتشفوا ذلك بأنفسكم؟»».

«أتعني أنك لا تستطيع قراءة الطالع؟».

«أستميحك عذراً الشاب، فأنا رجل شريف، أحترم عملي. الطالع هو اسم اللعبة. وما الرماد، والماء، إلا مبرران عليك أن تقدّم عرضاً ما إلى الناس: شيئاً أشبه بما يشاهدونه في السينما. وعلى افتراض أن كل ما تقوله لهم صحيح، فإنهم لن يصدّقوه إذا لم يصاحبه بعض الشعوذات. وكما قلت، فإن قراءة الطالع ليست إلا اسماً. فما أفعله هو قراءة الوجوه. نعم، أقرأ الوجوه. فكل شيء مكتوب فيها».

«ماذا تعني؟».

«لنفترض أنني أراقب السيدة الصغيرة وأنت تتحدّث معها. أتعرف ماذا أرى؟ أشاهد على وجهها أنها تحب رسومك. كلمة سحرية، وأعرف أنها قريباً ستعود. ويصبح الأمر قراءة طالع بالنسبة إليك».

«أنت لا تقول لي إن نزهتها هي عذر لرؤيتي، أليس كذلك؟».

هزّ الشحاذ كتفيه: «ما الذي أعرفه عن أفكار السيدات الصغيرات. فأنا لست طبيباً نفسياً. لا أعرف الأسباب، وجل ما أعرفه هو النتائج. لكن دع الأمر الآن، وحدّثني بشيء عن نفسك. نعم، السيدة الصغيرة جميلة، وكل ما يمكن أن تفكر

فيه، لكن قل لي من أنت، أو من لست أنت. من أين تأتي، وإلى أين تذهب؟ أيحمل وجهك مظهر نوع من المتسكعين؟».

«نعم، شيء من هذا القبيل. جئت من باراناجوا، وأنا، من خلال قيامي بالرسم قرب الشاطئ، أعمل لعودتي إلى هناك. واللوحة التي تراها هناك، هي الأولى في مشروعي الصيفي. وعلي، بحسب مخططي، أن أكون قد أنهيتها بالأمس، وأن أكون الآن في مرماي الثاني على بعد ثلاثين ميلاً، لكن... أنت تعرف البقية، على أي حال».

«لم ترد الرسمة أن تنتهي بعدما رأيت السيدة الصغيرة، أليس كذلك؟ آه، المطاردة هي دوماً الشيء الأكثر عذوبة، فلا تفسد الأمور إلا عندما نمسك، أو يتم الإمساك بنا، أليس كذلك؟ هذا جيّد، يا بني، كلّه جيد. دع اللوحة معلّقة في الجوار لفترة أطول بعد».

أفرغ الشحاذ وعاء العملة النقدية، لردود اليوم، على الحصير. عبّأ الوعاء بعصير الفاكهة ووضعه أمام الفنان، أما هو فأخذ رشفة من الزجاجة.

«هذه الباراناجوا خاصتك، هل هي جيّدة للاستعطاء؟».

«لا فكرة لدي. ولا يمكن في الحقيقة أن أقول باراناجوا خاصتي. أنا في الأصل من ساو باولو. درست في الولايات

المتحدة الأميركية، وتحديداً في إحدى جامعات بوسطن، وما لبثت أن انتقلت إلى باراناجوا لأقيم مع صديق لي».

«ماذا قال أهلك في شأن تخلّيك عن الجامعة؟ أسمع أن فتيان الجامعة يجنون الكثير من المال، أليس كذلك؟».

«لم تتوقع عائلتي أي مساعدات مالية من جانبي. فحالتها جيدة جداً. إلا أنها توقعت منّي الكثير. فكرت في إمكانية أن أصبح مصرفياً جيداً، أو أن أكمل أي اختصاص علمي ناجح. ولأن الجامعة التي تركتها هي هارفرد، فقد أحدث أهلي جلبة كبيرة في شأن الأمر، لكن لم يكن هناك سبيل آخر. عليّ أن أرسم وحسب».

«هار. . . فرد. . . هه؟ يا للعجب، يا للعجب. أراهن إن قلت ذلك للسيدة الصغيرة». . .

«كلاّ»!

حدّق الشحاذ إلى الفنان بغرابة.

«بنيّ، ثمة ثلاثة خيارات. إما أنك مغفّل، وإما أنك لا تريد أن تفتن السيدة الصغيرة، وإما أنك مغفّل. اختر واحداً منها».

ابتسم الفنان.

«ما الذي تريده يا بني؟»، سأل الشحاذ، «أتريدها أن تعتبرك فاشلاً؟ راعياً يرعى قطيعاً من الرسوم التي لا تُباع؟ أخبرها من أنت، فكيف ستعرف من تكون إذا لم تُظهر لها ذلك؟».

«لا أدري، لست متأكداً هل أريدها أن تنظر إلي على نحو مختلف فقط لأنني ارتدت هارفرد. لا أريد أن أُعاقَب في النهاية، بأن أكون محبوباً لما لست أنا عليه».

«ماذا؟! من يحب ماذا، ويعاقب من؟».

«إذا كانت ستُعجَب بي لأنني ذهبت إلى هارفرد، فمن الأفضل ألاّ تعجب بي أبداً، لأنني لست ما تعلّمته، أو عملي، أو دماغي... كما أنني لست مجموع هذه كلها أيضاً».

«إذاً، أنت تعرف من تكون، يا بنيّ».

«في الحقيقة، أنا... أنا من أنا، وحسب».

«بني، عليك أن تستمع إليّ. ألا ترى مدى أناقتها مع نظارتيها الرائعتين مرفوعتين فوق رأسها. فكلمة «هارفرد» هي كالموسيقى لأذنيها. قل لها «هار. . . فرد» وحسب، فربما أصابك الحظ».

هزّ الفنان رأسه: «لا، في ذلك مخاطرة كبرى... سيوجد

دوماً من هو أفضل مني. لكن، ليس من أحد مثلي. كما تعلم، فإن بصمات أصابع كل شخص مختلفة. وأودّ لو أن لدينا بصمة داخلية أيضاً. بصمة نخفيها بارتدائنا قفازات على الموضة...».

«يا للعجب! الفتى المسكين يشرع الآن في الكلام عن القفازات».

«آسف»، قال الفنان مبتسماً.

«ما الذي تتوقعه، إذاً، من السيدة الصغيرة؟».

«لا أدري. أتعتقد أنها ستكون هنا غداً؟».

«عذراً بنيّ. قراءة الطالع تكلف تسعة ريالات. لا أستطيع أن أقرأه مجاناً لأولئك الذين لا يعرفون ما يريدون».

«أعتقد أنك على حق».

قال الفنان، بعد برهة صمت، «حسناً، أعتقد أن عليّ أن أمضي في طريقي».

«كما تشاء، بنيّ. اجلب لنا بعضاً من البيرة عندما تأتي في المرة المقبلة. الحجم الأكبر، لو سمحت».

وضع الفنان لوحاته في الجيب، وتمدد على كرسي بحري تحت النجوم. انعكس ضوء البدر على الماء، واتسع مساره،

وهو يمتد بعيداً في اتجاه الأفق. سمّر عينيه على المشهد، متسائلاً: كيف استحوذت عليه بهذا القدر، فتاة يفتقر وجهها إلى الضوء الذي يبحث عنه.

١٤

شرعت ديانا تحدّق إلى صورة والدتها بعد يوم روتيني طويل بدون هدف.

«أمي، لنفترض أنني بدّلت رأيي، وذهبت أبحث عن ماريا. فما الفرق الذي يحدثه ذلك؟ أتعتقدين أننا نستطيع بلوغ ماريا من خلال اسم، هو اسم امرأة علّمتها كيف تتحدّث مع الورود منذ سنوات طويلة مضت؟».

لهج صدرها: «دعينا نفترض، ولو لدقيقة، أنني سافرت آلاف الأميال بعيداً إلى بلاد يقع فيها ذلك القصر، ولنفترض أنني عثرت على مضافة تلك السيدة على مقربة من القصر. فهل نعرف إذا كانت هذه المرأة لا تزال حيّة؟ وإذا كانت كذلك، فهل ستتذكّر تلك الفتاة الأجنبية التي قدمت إلى مضافتها منذ سنوات بعيدة كثيرة؟ أنا متأكدة من أنها ستفعل، إذا كانت قد علّمت ماريا حقيقة التحدّث مع الورود. إلا أنه

لا يمكننا التفكير حقيقة في أن مثل هذا الأمر ممكن، أليس كذلك يا أمي؟

«وحتى لو تذكّرتها، فبماذا قد يعود ذلك بالنفع؟ كيف ستعرف أين هي ماريا الآن؟

«إذا ذهبت حقيقة إلى هناك، فسأسألها بتهذيب «عفوك سيدتي، لا أعلم إذا كنت تذكرين، لكن، منذ فترة طويلة، نزلت فتاة سائحة هنا، اسمها ماريا. أتذكرين؟ إنها الفتاة الصغيرة التي علّمتها التحدّث مع الورود... أرجوك الآن أن تقولي لي أين يمكن أن أجدها؟

«ماذا تعتقدين أنها ستفعل، يا أمي، بعد سماعها ذلك السؤال؟ الأكثر ترجيحاً أنها ستقابلني بابتسامة، وعندما ألحّ على طرح السؤال ذاته على الموظفين، أو حتى على الضيوف، فستطلب مني، بتهذيب، الرحيل. وعندما أقول لها إنني لن أتزحزح قيد أنملة حتى أعرف أين ماريا، فستبلغ السفارة البرازيلية بسبب تردّدها عن رميي خارجاً بالقوة. لكنني لن أستسلم، وسأشغل موظفي السفارة لساعات وأنا أسألهم، أين ماريا؟ أين ماريا؟ أين هي ماريا؟

«وعندها ماذا؟ أفترض أنهم سيعتقدون أنني فقدت عقلي، ويرسلونني إلى الديار على متن أول طائرة، وفي يدي تقرير

بأنني مجنونة. وسينتظرني في المطار رجال يرتدون معاطف يأخذونني بيدي، ويواكبونني إلى أقرب مصحّ عقلي.

«هذه في الحقيقة أخبار سارة يا أمي، لأنه المكان الوحيد الذي يمكنني فيه العثور على ماريا».

١٥

بدا كما لو أن جميع فتيات ريو دي جانيرو ذوات الشعور الكستنائية، قد اجتمعن في المنتزه، وكأنهن اتفقن جميعاً على أن يظهرن مثل ديانا. إلا أنهن برغم اقترابهن من الفنان، تركنه، مرّة أخرى، خائباً ومحبطاً. فهو، طوال الأمسيتين الماضيتين، انتظر ديانا في المكان ذاته، لكنها لم تظهر.

وبّخ نفسه على عدم تمسّكه بالبرنامج، وذلك كله كرمى لعيني فتاة يعرف أنها غير مناسبة له، إلا أنه لم يستطع وحسب، حمل نفسه على مغادرة المتنزَّه.

منذ زمن بعيد لم يتورّط في علاقة، منذ أن فقد الثقة بمقاربة التجربة والخطأ في قضايا الغرام. وأدرك، مع الوقت، أن كل علاقة جديدة تعني حتماً فراقاً جديداً، لذلك قرر أن يلجأ إلى العزوبية بعيداً عن هموم الارتباط... وغمه.

نظر في السابق إلى كل فراق على أنه تحضير للعلاقة

التالية، ولم يظن أنه سيخسر الكثير. لكنه سرعان ما أدرك أن أنقاض العلاقة السابقة تنتقل إلى التالية.

أيقن أيضاً أن معظم الناس يعتقدون أنهم المظلومون عند نهاية العلاقة. يظنون جميعهم أنهم أعطوا الكثير من ذواتهم، في حين لم يتجاوب الشريك معهم بالطريقة نفسها.

تلك كانت الحال بينه وبين فتاته الأخيرة، عندما افترقا منذ ثلاثة أعوام. حاول طوال أسابيع فهم هذا التباين. كيف يمكن لكلا الطرفين أن يعتقد أنه هو المظلوم؟ وظل تائهاً يبحث عمن يرشده إلى ضالّته، إلى أن هبط الوحي عليه أخيراً. . . ففي أحد الأيام، وجد وهو يراقب طائري نورس يحلّقان، الجواب الذي طالما كان يبحث عنه.

ركّب في ذلك اليوم مرسمه عند الجرف الصخري، على مسافة قريبة من مكان إقامته. شغل نفسه في مرسمه الجديد، وتماهى في عمله، إلى حد أن نورساً ألهاه بانطلاقه من جرف مجاور، وغطس نزولاً صوب الماء. وعلى الفور تبعه نورس آخر، انطلق من الجرف المقابل، وانقضّ نزولاً صوب البحر في اتجاه المكان نفسه. كان كلاهما على بعد أنملة تماماً من الماء، يكادان يتصادمان، وقد أخذتهما سلسلة من المناورات صعوداً إلى السماء من جديد. وارتفعا على علو أكبر من مستوى الجرف الذي انطلقا منه، كما لو أنهما يتعانقان بأجنحتهما.

فكّر الفنان، وهو يراقب طيران هذين النورسين، في أنه على المرء، ليرتبط، أن يفك ارتباطه أولاً.

لكن معظم الناس دخلوا في علاقات جديدة بارتباطاتهم القديمة. وسواء أحملوا معهم من ماضيهم مشاعر عدم الثقة، وعدم فهمهم، أم جداراً دفاعياً، فإن تلك الروابط القديمة منعتهم من عيش العلاقة الجديدة بحرّية. وربما هم على حق في الاعتقاد أنهم ظُلموا على يد ماضيهم الخاص الذي لم يتمكنوا من تركه وراءهم.

لقد تمكن هذان النورسان الآتيان من جرفين مختلفين، من ترك مكانهما «الماضي» والهبوط إلى مستوى البحر، إلى «الصفر» لكل منهما، محرّرين نفسيهما من هويتيهما المنفصلتين؛ وبالتالي أمكنهما الارتفاع صعوداً في السماء، الواحد في الآخر.

ويعود إلى ذلك اليوم تاريخ دأب الفنان على رسم النورس. إلا أن نورسه أخذ منذ بعض الوقت يتعب من طيرانه المنفرد، ويتوق إلى لحظة نزوله صوب البحر. وربما ليس هذا هو الشاطئ المناسب له للقيام بذلك، وبرغم ذلك لم يتمكن من المغادرة، واستمر في التحليق في السماء.

عندما حل الظلام الشديد، أدرك الفنان أن ديانا لن تأتي اللّيلة أيضاً إلى شاطئ البحر.

١٦

لم تسمح الأحلام لديانا حتى بإكمال نصف ساعة من قيلولة بعد الظهر. حاولت تحرير ذهنها من المشاهد المختلطة لأحد القصور وإحدى حدائق الورد. استحال ذلك. وتمنت، في حال لم تتمكن من انتزاعها من رأسها، أن تمنحها على الأقل معنى. وبدا ذلك مستحيلاً أيضاً.

نهضت وارتدت بزة التدريب وانتعلت حذاءها الرياضي. فلربما قدّمت إليها مسيرة قصيرة في المتنزّه، أو محادثة سريعة مع الفنان.

شرع الشحّاذ، الجالس على حصيره بمظهر الملك أكثر من المستعطي، في عدّ نقوده عندما رأى ديانا قادمة. بدا كما لو أنه ينوي أن يظهر بمظهر من لا يريد، اليوم كذلك، ملاحظتها. وهي على أي حال، لم تعد تتوقع منه أي تفسيرات أيضاً.

كان الفنان في مكانه المعتاد، مشغولاً أيضاً في رسمه.

«إذاً، كيف هي ألوانك اليوم؟»، سألته ديانا.

«جيدّة. وماذا في شأن ألوانك؟».

«حسنة، على ما أعتقد، يا سيّد فلان الفلان».

«جون، أو ماتياس. لك أن تختاري».

«لديك اسمان؟»

«نوع من الشخصية المزدوجة، إذا شئت».

«ماذ تعني؟».

«يريد ماتياس البقاء في هذا العالم والتمتّع به، بينما يريد جون الطيران بعيداً».

«الطيران إلى أين؟».

«لا أدري، إلى ما وراء هذا العالم، ربّما».

«آه، أرى ذلك... ماتياس اسم غير معهود في الجوار».

«يظن الناس ذلك»، قال ماتياس، مردّداً تماماً ما قالته ديانا في المرة الأخيرة التي تحادثا فيها.

ابتسمت ديانا، واستدارت لتتفرّج على اللوحة. أمكنها القول إنها لم تُنجز بسبب غياب النورس عن الصورة. وهي،

برغم أنها حدّقت فيها لبعض الوقت، لم يمكنها أن تفكّر في أي شيء تقوله عنها.

أصاب صمتُها واحتمال رحيلها ماتياس بالاضطراب. وهو، كي يتعرّفَ إليها على نحو أفضل، لم يكتف بتغيير برنامجه، بل اضطر لأيام إلى المكوث في نزل رخيص، من النوع الذي تنزل فيه مياه الاستحمام باردة، وكرسي الحمام لا يعمل، والسرير ضيّق، كما لو أنه متكور على ذاته.

«إذاً»، قال ماتياس. «أنا، كما ترين، أفتقر اليوم إلى الوحي. أفكّر في الذهاب لتناول فنجان من القهوة في المقهى هناك لتغيير الجو. أترغبين في الانضمام إليّ؟».

تردّدت ديانا قبل أن تقول بلا مبالاة «حسناً، أفترض أنه في إمكاني ذلك. فأنا على أي حال، أحتاج إلى استراحة لالتقاط أنفاسي».

وضع ماتياس ريشته بعناية في الثقب المخصص لها في مرسمه. «لنذهب»، كما لو أنه متكور على ذاته.

عندما اقتربا من المقهى، وجد أنه مكان أكثر بهرجة مما توقّعه، أو رغب فيه.

١٧

بلغا مكاناً، طاولاته مغطاة بالجلد، ومشاعله مضاءة بتأثيرات ضوئية خاصة، وفي زواياه مطافئ للنار ملبّسة بالنحاس. إنه المكان الذي يتشوّق زبائنه إلى دفع خمسة وعشرين ريالاً برازيلياً لتناول فنجان من القهوة، جاثمين على مقاعد غير مريحة من الحديد المليّف، وهم يستمعون إلى الصخب في الداخل. لم يتمكن ماتياس من تخيّل نفسه يأتي إلى هذا المكان ولو مكث في ريو دي جانيرو مئة عام. إلا أنه، لم يشاهد للأسف، أي مقهى آخر في الجوار.

ما إن جلسا إلى إحدى الطاولات حتى ظهر النادل.

«كيف يمكنني خدمتكما؟».

بعدما صرفاه سريعاً طالبين قهوة بالفانيلا الفرنسية وإكسبريسو، تطلّع ماتياس حول الغرفة: «يا له من مكان للوحي!».

«الوحي، آه، حسناً»، قالت ديانا. «أنا نفسي أرسم من وقت إلى آخر. لكن، عليّ أن أعترف بأن الوحي لم يزرني يوماً. أعتقد أن هذا هو الفارق بين رسّام وشخص يقوم بمجرّد الرسم».

«لا أعتقد أن الوحي أساسي».

«ألا تعتقد؟».

«الوحي، بالنسبة إلي، يُظهر نفسه في الوقت الذي يتطلّبه إنجاز اللوحة أكثر مما في الرسم بحد ذاته. فبعض الرسوم تستغرق يومين فقط، في حين لا يمكنني اعتبار رسوم أخرى منتهية حتى بعد العمل عليها لبضع سنين. كما لا يوجد فارق كبير بين رسومي».

«آه، صحيح، كنت سأسألك عن ذلك. لماذا تدأب دوماً على رسم البحر؟ ألا ترسم شيئاً آخر؟».

«كلا، ليس في هذه الآونة. فقد عشت أوقاتاً عاصفة منذ بضع سنين، وأنا من يومها لا أرسم إلا البحر».

«أيزعجك أن أسأل أي نوع من العواصف؟».

«كان أمراً غريباً. بدأ كل شيء مع انفساخ إحدى علاقاتي. أخذت أشعر في يوم بأنني أطارد بمضرب كل من يقترب مني، ولا يمكنني في اليوم التالي الاستمرار من دون

الناس. وقرّرت في النهاية، أن أفجّر «موجي» على القماش على شاكلة مناظر بحرية، أملاً أن يساعدني ذلك على فهم نفسي».

«وماذا عن النورس؟».

«إنها قصة طويلة. أشكّ في أنك تريدين الاستماع إليها».

«جرّبني».

«أعليّ فعلاً أن أرويها؟».

شرع، في مواجهة إصرار نظرتها، في إخبارها عن اليوم الذي شهد فيه النورسين. لم يدخل في التفاصيل، إلا أنه أمكن ديانا أن تخمن معنى النورس الوحيد في لوحاته.

سأل النادل، بعدما وضع قهوتيهما بحرص على الطاولة، إذا كان ذلك كلّ ما يودّان طلبه. وعندما أومآ برأسيهما، انحنى وانسحب.

«أنت لا تزال ترسم البحر، ألم تبلغ عاصفتك نهايتها بعد؟».

«بلى، إلا أنني أدركت شيئاً في غضون ذلك. أيقنت أنني أهوى دوماً رسم أمور مختلفة».

بدا الارتباك على ديانا. فهو، قبل دقائق فقط، قال إنه لا

يرسم إلا مناظر البحر، وها هو يقول الآن إنه يهوى رسم أمور مختلفة.

«بينما رحت أرسم مشاهد الشاطئ نفسه، الواحد تلو الآخر، أدركت أن الشيء الذي اعتقدت أنه الأقل تغيّراً هو في الواقع الذي يتغيّر أكثر ما يكون: البحر».

«مثلك أنت؟»، سألت ديانا، وقد تذكّرت الرابط الذي ذكره ماتياس سابقاً بينه وبين البحر.

«في الحقيقة، مثل الجميع. فنحن نظنّ أننا نرى الشخص نفسه عندما نتطلّع إلى المرآة في كل صباح. أصدقاؤنا يعتقدون أنهم يرون الشخص نفسه حتى إثر لقائنا بعد سنوات عدّة».

«صحيح»، قالت ديانا. «وحتى لو لاحظوا تغييراً، فالأمر يتعلّق عادة بأمور مثل وزن الشخص أو تسريحة شعره...».

«بالضبط، فهم لا يعتبرون أبداً أن الشخص الواقف أمامهم ربما أصبح شخصاً جديداً... وأنا شخصياً أعتقد أنه يمكن الشخص أن يتغيّر في غضون أيام قليلة».

خفضت ديانا نظرها وهي تفكّر كم أن كل شيء أجبرها أخيراً على أن تتغيّر.

لمس ماتياس ذراعها بلطف: «آسف، هل تلفّظت بشيء أزعجك؟».

«لا، لا، ما قلته ذكّرني بأمر ما وحسب».

استند ماتياس إلى مرفقيه ليقترب أكثر منها: «أترغبين في التحدّث عن الأمر؟».

«في الحقيقة... ربما في وقت لاحق».

عاد النادل إلى الظهور ليسأل إذا كانا يرغبان في شيء آخر. استدارت ديانا صوب ماتياس: «بماذا ترغب؟ فأنا سأطلب بعض الحلوى بالشوكولا».

«نعم، يبدو ذلك رائعاً. سأتناول الشوكولا أيضاً».

«آسف جداً». قال النادل. «لقد قدّمت للتو الحلوى إلى طاولة أخرى، لذا، فإنني أعرف أنه لم يبق إلا قطعتا حلوى بالشوكولا، وهذا يُعدّ طبقاً واحداً. ما رأيكما لو قسمت الحلوى بالشوكولا بينكما، وأضيف إليها الحلوى بالفانيلا لإكمال الطبقين؟».

وافق كلاهما على مضض.

١٨

غرقا في نقاش بلغ من العمق حدّاً، أنهما لم يشتكيا من عدم وصول الحلوى بعدُ. لكن ماتياس أراد تذكير النادل حتى لا يخسرا الحلوى بالشوكولا وتُقدَّم إلى زبون آخر.

وضع الخادم الشوكولا أمامهما.

أخذت ديانا قضمة من الحلوى بالفانيلا، وسألت ماتياس: «ما هي أهدافك؟ أقصد من رسمك».

«لدي هدف وحيد، وهو الرسم».

«اعتقدت أن الأهداف تتعلّق بالمستقبل، أوليست كذلك؟».

«المستقبل»، قال ماتياس مبتسماً. «ثمة، في الحقيقة، قول مأثور أحبّه، وهو ما دام الوقت ينساب قُدُماً، فالمستقبل الذي نحن مأخوذون به، ما هو إلا ماض لم يُمَسّ».

تساءل، وهو يتناول أول قضمة من الحلوى بالشوكولا، كيف ستتقبّل ديانا ذلك.

بعد برهة من الصمت، قالت له «أعتقد أن ما تعنيه هو أن يوماً من المستقبل يصبح «ماضياً» بالنسبة إلى اليوم الذي يليه. ومن المؤكّد أن ذلك اليوم التالي سيأتي لأن الوقت ينساب قُدُماً... وهكذا، فإن كل يوم ننظر إليه بوصفه «المستقبل» ليس، في الحقيقة، سوى «ماض» مؤجّل؛ ماض لم يمسّه الوقت بعد... هل استوعبت الأمر على نحو صحيح؟».

«لم يسبق أن التقيت أحداً وصَفَه بأفضل من ذلك».

«لكن ذلك كلّه يبدو فلسفياً، ولا أعتقد أن له أي قيمة عملية في الحياة اليومية».

«هاي»، قال مبتسماً، «لقد حاولت فقط أن أجيب عن سؤالك».

«آه، أنا آسفة».

«كل ما أردت قوله، هو أنني أود أن أحقق أهدافي في الوقت الوحيد الموجود حقيقة، وهو الحاضر. لهذا، اخترت الرسم بوصفه هدفي الوحيد».

«لكن، لا بد من أن لديك خططاً للمدى البعيد؟».

«إيه، لدي مخطط. أحاول أن أعمل للعودة إلى المدينة الصغيرة التي أعيش فيها، على مقربة من باراناجوا، عبر رسم مشاهد على طول الشاطئ. وسأقيم، في نهاية الصيف، معرضاً في واحد من الأماكن التي رسمتها».

لقد عرفت الآن، أن ماتياس ليس من ريو دي جانيرو... سبق لها أن خمّنت ذلك. إلا أن الطريقة التي قال فيها ماتياس، عَرَضاً، «المدينة الصغيرة التي أعيش فيها على مقربة من باراناجوا»، كما لو أنه يعلن عن أمر غير ذي أهمية، أيقظت في ديانا شعوراً مألوفاً: الوحدة.

«بل إنني»، قال ماتياس قاطعاً عليها تفكيرها، «قد خططت لاسم المعرض: بحار البرازيل المتغيّرة...».

«يبدو جيّداً».

«لكنني في الحقيقة لا أعرف هل سأنهي هذا المشروع في الوقت. وثمة أمور كثيرة أخرى لا أعرف في شأنها... إذا أنهيت المشروع في موعده، فهل سأملك ما يكفي من النقود لإقامة معرض؟ وإذا فعلت، فهل سأتمكن من إيجاد المكان المناسب للمعرض. وإذا فعلت، فهل سأحصل على التصريح اللازم من السلطات. وإذا حصلت، فهل يمكنني احتمال كلفة الإعلان اللازم له. وإذا أمكنني ذلك، فهل سيُظهر أي كان اهتماماً بلوحاتي؟ وإذا فعلوا، فهل سيُرضيني ذلك؟ وهل

سأكون سعيداً حتى ولو سار كل شيء كما خططت له تماماً؟ وإذا سعدت، فإلى متى ستستمر سعادتي؟ وحتى لو استمرّت لوقت طويل، فهل سأتمكن من التغلّب على الخوف من أنني سأفقدها في يوم من الأيام؟ وتستمر لائحة الأمور التي أجهلها وتستمر. . .».

«وتستمر...»، قالت ديانا بانسجام.

«كما ترين، ذلك هو السبب الذي قررت من أجله أن الرسم هو هدفي الوحيد».

«لنقل، إذاً، إن المعرض حصل فعلاً، فأين سيقام؟».

«لا أعلم، بعدُ. قررت قبل الشروع فيه، أنني سأقيمه في المكان الذي أرسم فيه أفضل لوحة».

أنهى كل منهما قطعة حلواه الأولى. وبقي في طبق ديانا الحلوى بالشوكولا، وفي صحن ماتياس الحلوى بالفانيلا. لفت الفارق في الترتيب الذي اختاره كل منهما لتناول حلواه انتباه ديانا. فهي تركت التي تحبها أكثر لتأكلها لاحقاً، بينما تناول ماتياس قطعته المفضلة أولاً.

حان دوري، خمنت ديانا. أشارت إلى قطعة الحلوى الباقية في طبقها، وقالت، «انظر، تُظهر قطعة الحلوى هذه أن المستقبل يستحوذني أكثر. فمنذ كنت صغيرة، وأنا أترك دائماً

الطعام الذي أحبّه أكثر إلى النهاية. لكن، في معظم الأوقات، عندما يأتي دور تناوله، أكون قد اكتفيت. وهذا، على ما أخشى، قد حصل اليوم».

«شبعت؟ أظن، بهذا، أن حلواك بالشوكولا موجودة في الماضي، ولم تُمَسّ؟».

ابتسما معاً، وحدّق كل منهما إلى الآخر، حتى شعر بالحاجة إلى حجب نظره بعيداً.

نظرت ديانا إلى ساعتها: «آه، لقد تأخر الوقت».

طلب ماتياس الفاتورة.

«ديانا، الأمر متعلّق بك، لكن إذا وُجد ما تريدين الكلام عليه، فأنا هنا لأصغي».

غشي الضباب عيني ديانا للحظة، ثم استعادت رباطة جأشها، وشرعت في إجمال ما مرّت به في الأشهر الماضية.

أصغى ماتياس بانتباه كلّي إلى ديانا تروي حكايتها. وعندما انتهت، لم يعرف كيف يردّ. كل ما أمكنه القول هو «آسف شديد الأسف».

«ما يضايقني أكثر هو فكرة أن أمي لم تعد موجودة»، تابعت ديانا. «بل إن الأمر أسوأ من أن يُترك المرء بلا أم.

أود لو أنها لا تزال موجودة في مكان ما، حتى ولو لم أرها أبداً، أو أسمع صوتها».

لاحظ ماتياس الدموع في عينيها.

«ديانا»، قالها بلطف. «لن يمكنني أبداً إدراك معاناتك. لا يمكن أحداً ذلك. لذا، فإن كل ما أقوله لن يعني الكثير... أعرف أن الأمر ليس سيان، لكنني استأت كثيراً عندما رحل جدّي إلى الدنيا الآخرة. لم أعرف وحسب كيف أتقبّل الأمر؛ ثم إنني قرأت قصّة صغيرة في أحد الكتب، وقد أثّرت فيّ فعلاً».

تذكّرت ديانا القصص التي تعوّدت أمها أن ترويها لها، وحبست دموعها بصعوبة.

«أودّ أن أسمعها».

«حسناً»، قال ماتياس. «ثمة موجة كانت في المحيط، تتهدهد إلى الأمام، تستمتع بدفء الشمس وبسرعة النسيم. ابتسمت لكل ما حولها وهي تشق طريقها إلى الشاطئ. لكنها لاحظت فجأة، عند حد ما، أن الأمواج التي قبلها، تصطدم، الواحدة تلو الأخرى، بوجه الجرف، وتتكسّر على نحو وحشي إلى أجزاء. يا إلهي! صرخت، ستكون نهايتي تماماً مثل نهايتها. وسرعان ما سأصطدم أنا أيضاً وأختفي! عند هذا

الحد شاهدت موجةٌ عابرة أخرى هلعَ الموجة الأولى، وسألت، لم أنت جزعة إلى هذا الحد؟ انظري إلى جمال الطقس، شاهدي الشمس، أحسّي بالنسيم... أجابت الموجة الأولى: ألا ترين؟ انظري كيف أن الأمواج التي سبقتنا تصطدم بالجرف بعنف. انظري إلى الطريقة الفظيعة التي تختفي فيها. سرعان ما سنصبح لاشيئاً، مثلها تماماً. آه، لكنك لا تفهمين، قالت الموجة الثانية. أنت لست موجة. أنت جزء من المحيط».

القصة، وما شاهدته من تعاطف في عيني ماتياس وهو يحكي الرواية، أعطيا ديانا بصيصاً من عزاء. أحست فجأة بدافع إلى مدّ يدها وملامسة يده المستندة إلى الطاولة. لكنها توقّفت، وهزّت بدلاً من ذلك رأسها تقديراً.

ظهر النادل حاملاً الفاتورة موضوعة داخل صدفة محار. وعندما همّت ديانا بأخذها، قال ماتياس «أرجوك. فأنا دعوتك».

ذهبت ديانا تواكب الفنان إلى المتنزّه، عندما تذكّرت فجأة كلمات الشحاذ. فقد قال إن «هذه الفتاة مثلك تماماً، وستلتقي يوماً بذلك الفنان». فكّرت للحظة في أن تبلغ ماتياس بذلك، وتحذّره من عدم الخلط بين ماريا وبينها في حال التقت

طريقاهما، إلا أنها لم تُرد إقحام الشحاذ في ذلك، وقررت العكس.

ما إن بلغا «مرسمه» حتى مدّت ديانا يدها. «أمضيت وقتاً رائعاً في هذه الأمسية يا ماتياس، أو جون. شكراً».

«لا، بل أنا أشكرك».

فكّرت ديانا للحظة في أن تسأله متى سيغادر ريو دي جانيرو. أحبّت أيضاً أن تقول له إن في وسعه العثور عليها في الفندق الموجود في مكان أبعد على الطريق، وأن تعرض عليه غرفة لتخليصه من النزل الرخيص. لكنها حيّته وغادرت دون أن تقوم بأي من ذلك.

١٩

تجاوز الوقت منتصف الليل عندما نزلت ديانا من الاستوديو الفني الخاص بها. رمت بنفسها على السرير بلا مبالاة بدون أن تفكر في الطلاء الأزرق الذي يلطّخ كل جزء منها. ومثلما توقّعت تماماً، أصبح غطاء الفراش ملطّخاً كله بالأزرق. فكرت لحظتها في أنه سعر معقول تدفعه لقاء رسمها البحر.

لا تقع الملامة في التسبب في اللطخة، على موضوع الرسمة، بل على الأسلوب الجديد في الرسم الذي جرّبته. بدأت في التخلّص من القواعد التي تعلّمتها من دروس الفن التي تلقّتها في ما مضى. فقد ضغطت كامل محتويات أنبوب الرسم في راحة يدها، ونشرتها مستعينة بيديها الاثنتين، على القماشة، في دوائر عشوائية، وهي تصغي إلى أنغام لورينا ماكينيت الصوفية.

شعرت ديانا بطريقة ما، بأنها مَدينة لماتياس لتحفيزها على

الرسم بعد كل هذا الوقت الطويل. والأهم أن القصة التي رواها جعلتها تشعر بحال أفضل. لم تُرد خسارة هذا الشعور، بل تمنّت الإضافة إليه من خلال قيامها بأمر من شأنه أن يُسرّ والدتها.

تناولت الغلاف الأخضر الموضوع أمام مصباح السرير، وأعادت مرّة أخرى قراءة رسالة ماريا الثانية:

الرسالة الرقم ٢: «السبيل إلى الحديقة»

«٢٢ شباط/فبراير،

أمي الحبيبة،

أمكنني، في سنوات طفولتي، المحافظة على حلمي بالعثور عليك، رغماً عن الآخرين. لكنني أخذت، أشعر مع مرور الوقت، بأن قوتي تضعف في وجه المحاولات التي لا تنتهي لتحويلي أيضاً إلى «أخرى».

ثم إن حلماً راودني في إحدى الليالي. رأيت نفسي في زورق خشبي صغير يدفعه التيّار عبر المحيط. كنت أرتدي قميص نوم أبيض وقبعة برتقالية. الأفق صاف، إلا أن المركب لم يملك لا شراعاً ولا مجذافين ليقلّني إلى هناك. كنت أنا أنتظر عاجزة، حينما تحدثتِ إليّ من خلف الغيوم الرمادية:

«ماريا، عودي إليّ».

«أين أنت، يا أمي؟».

«لم تفقديني، فأنا دوماً معك».

«لماذا لا يمكنني أن أراك إذاً؟».

«لأنك لست معي».

«وكيف لي أن أكون معك؟».

«شاهديني في ذاتك».

«لا يمكنني ذلك».

«حاولي إذاً، أن تريني في هداياي».

سُمع فجأة خواء يصم الآذان، إذ انشقّت السماوات. ونزلت يد من ضوء، رفعت قبعتي واستبدلتها بإكليل من الورود البيضاء. تلك اليد هي يدك يا أمي. والإكليل هو أجمل هديّة أحصل عليها على الإطلاق.

تأمّلتُ لبعض الوقت، معجبة بجمال هديتك وأنا أنظر إلى انعكاسها في الماء. ثم هبّت عاصفة شعواء. أخذ المركب يتمايل في هذا الجانب وذاك، وأنا تكوّمت في أسفله وأخذت أشهق بالبكاء، «أنجديني يا أمي!».

توقفت الريح بعد فترة وجيزة، وأخذ المطر ينهمر وهدأ البحر.

نظرت من جديد إلى انعكاسي في الماء، فرأيت أن الأكليل لم يعد على رأسي. شعرت، في تلك اللحظة، كما لو أنني فقدت كل ما أملك. شعرت بأنني أشبه بنهر جاف، وبطير بدون جناحين، وبوردة لا رائحة لها... لكنني بقيت نهراً، وطيراً، ووردة. بات عليّ البحث عن إكليلي على الفور.

بحثت عنه في المركب. وفتشت عنه في المدى، وفي البحر، وفي السماء... إلا أنني لم أتمكن من إيجاده.

ناديتك.

«اين إكليلي، يا أمي؟».

«أحني رأسك يا ماريا».

وما إن أحنيت رأسي حتى رأيت في انعكاسي في الماء، أن إكليلي انزلق ليس إلا إلى مؤخرة رأسي. ثم إنك تحدّثت إليّ من جديد، لكن صوتك لم يأت هذه المرّة من السماء، بل تسللت إلي أصداؤه من الورود الموجودة في إكليلي:

«ماريا، يا طفلتي. لا تفتشي في ما هو أبعد من ذاتك عما تملكينه بالفعل، حتى لا تعتقدي أنك أضعته».

في هذا الوقت تماماً، طلع قصر من وسط المحيط، وقرب القصر حديقة. غطّت الورود جدرانه، ومن ورائها أخذ غناء البلابل في الارتفاع.

تحدّثت إليّ مرة أخرى:

«إذا أردت أن تسمعي صوتي، فسيري في ممر الحديقة. أمسكي بيد عاملة الحديقة وأنصتي إلى الورود».

«آه، أمي، إنه بعيد جداً. يوجد محيط كامل بيننا، وأنا لا أعرف العوم!».

«لا تخافي، سيري وحسب. إذا تخلّيت عن أمتعتك فستحملك المياه».

«لكنني لا أملك أي متاع».

«اعتقادك أن الماء لن يحملك هو متاع ثقيل، لذا ضعيه جانباً، وسيري».

لكن أمي، إلى أين سيقودني هذا السبيل؟».

«إليّ».

«أيمكن إذاً، أن ألتقيك في هذا العالم؟».

«نعم، في هذا العالم».

لم أستطع انتزاع هذا الحلم من ذهني، وعشت على أمل أن يتحقق. عندما كنت مسافرة مع صديقة لي وعائلتها بعد ذلك بثلاث سنوات، لاحظت حديقة ورد مختبئة وراء المضافة التي نزلنا فيها. وعلى مسافة أكثر بعداً بعض الشيء، أمكنني رؤية قصر توبكابي الذي يشبه كثيراً القصر الذي رأيته في الحلم. ما إن رأيت تلك الحديقة وذلك القصر، حتى شعرت بأنه لا بد من أن يكونا المكان الذي أردتِني أن أزوره. ولم أخطئ.

كانت زينب هانم، السيّدة التي تملك المضافة، شخصاً رائعاً؛ إنها «اللا ـ آخر». إنها الشخص العارف الذي كنت أنتظره على الدوام؛ الشخص الذي سيساعدني على سماع صوتك. أخذتني في نزهات سحرية في حديقة الورد. وقبل مضي وقت طويل، علّمتني ما أحتاج إليه لسماع الورود. مكّنتني البذور التي أرتني إياها في قلبي، من سماع وردة تتحدث في أذني بعد ذلك بسنوات في منزلي الخاص.

آمل، في رسالتي التالية، أن أخبرك عن المرحلة الثالثة من رحلتي إليك.

مع كامل محبتي...

ماريا».

*

ليست هي المرّة الأولى التي تقرأ فيها ديانا هذه الرسالة. إلا أنها شعرت وقد لازمتها تلك اللحظة هذه المرّة ببعض التغيير. فكّرت كيف أن توأمها كرّست حياتها للعثور على أمها وكادت تحسدها على قوّة مشاعرها حيال والدتها، والاشتياق الذي لا يضعف أبداً، وتصميمها على العثور عليها...

الواقع أن ماريا ربما تحلم ببعض الشيء، وربما أنها تخبر في رسائلها عن أمور تتمنى لو مرت فيها بدلاً من تلك التي عايشتها فعلاً. ربما هي مجنونة، وربما تحب التخيّلات. لكن ثمة أمراً واحداً مؤكّداً. فماريا تحب والدتها... والأهم من ذلك، فقد تمكّنت من أن تبقي أمها حية في قلبها لسنوات طويلة جداً، وهو أمر وجدت ديانا استحالة في القيام به.

وها إن ماريا، في الوقت الذي تعتقد فيه أنها على وشك لقاء أمها، تخسرها إلى الأبد. أو ربما، لأنها علمت بأن والدتها ستموت، قررت أن تضع حداً لحياتها فقط كي تكون معها في أسرع وقت.

في حلم ماريا، قالت لها أمها إنها ستراها في هذا العالم. لكن العالم الخيالي الذي بنته ماريا من حولها قد تحطّم ما إن تبين أن هذا الوعد هو كذبة. لن تتمكن ماريا أبداً من رؤية والدتها في هذا العالم.

«مثلي أنا بالضبط»، همست ديانا.

٢٠

أنهى ماتياس لوحته عند منتصف الليل. لكنه كان لا يزال في المتنزّه مع انبلاج الفجر، يتصارع مع مسألة لم يتمكن من الإجابة عنها خلال الليل: هل عليه أن يغيّر اسم معرضه إلى «بحار ريو دي جانيرو المتغيّرة»، أم لا؟

فالبحر على طول هذا الشاطئ في تغيّر مستمر، ويمكنه بالتالي أن يستأجر كوخاً صغيراً مجاوراً لفترة الصيف، ويرسم لوحاته كلها في المتنزّه. سيكون الأمر بالتأكيد جديراً بالاهتمام، إلا أنه وجد صعوبة كبرى في اتخاذ قراره. لم يرد، فقط من أجل صيف مليء بالإلهام، أن يشرع في علاقة يعلم بأنها لن تستمر.

سار، وأمسك بزجاجتي كولا من براده، وهو أمر لم يمرّ من دون أن يلاحظه الشحاذ الذي لم يعتمد بعدُ وضعية الجلوس التي يأخذها في خلال ساعات عمله.

«لا تكن غبيّاً!»، صاح به الشحاذ. «جئ بنفسك إلى هنا!».

أخذ زجاجة الكولا التي أعطاه إياها الفنان. «هل الكولا هي كل ما لديك في هذا الوقت المبكر من النهار؟ سبق وقلت لك زجاجة بيرة الجذور من الحجم الكبير».

«قلت إنك تقرأ الوجوه، أليس كذلك؟».

«إذا قلت ذلك فهو صحيح، لكن ليس بالمجان يا بني. لنكن صريحين».

«لقد كتبتُ للتو قائمة من عشر مزايا. القائمة تدعى نوع الفتاة التي أبحث عنها. خمّن ماذا، فهي تتطابق مع البند الثاني وحتى البند العاشر. وأنا من اعتقد أنه يكره الحسابات».

«ما علاقة قائمتك بي، يا بنيّ؟ أفصح عمّا تريده مني».

«اعتقدت أن في وسعك أن تقول لي شيئاً في ما يختص بالبند الأول على قائمتي، والذي يحمل بالنسبة إلي أهمية أكثر من البقية كلها معاً».

«أي نوع من البنود هو؟».

«على الضوء أن يوجد في وجهها».

«يا للهول! وأي نوع من الضوء هو هذا؟».

«ضوء لم أره على وجه أحد من قبل، ويمكنني أن أتعرّف إليه ما إن أراه. وهي، للأسف، لا تمتلكه هي الأخرى».

«وما فائدة هذا الضوء، يا بني؟».

«إنه إشارة إلى أنني وجدت توأم روحي».

«أي توأم؟! لا تحدّثني بالألغاز، يا بني. الأحجيات ليست من شأني».

أشار ماتياس صوب البحر. «في كل يوم ينظر آلاف الأشخاص إلى ذلك، إلى الشيء نفسه. معظمهم يرى البحر، إلا أن قلة منهم، ربما، ترى شيئاً مختلفاً. أتساءل هل رأى أحد صحراء حارقة هنا؟ أو جبلاً؟».

«يا للهول. لا تفعل ذلك بي يا بني، لا تفعل!».

«إذا ادّعيتُ في يوم من الأيام أنني أرى صحراء وأنا أنظر إلى البحر، أو بحراً وأنا أنظر إلى الجبل، فهل سيصدقني أحد؟».

«آه، لا، لقد فعلتها يا بني، لقد فعلتها. أعطِ هذا الرجل العجوز فرصة، وقل لي وحسب ما الذي تتحدث عنه».

«جُل ما أريد الوصول إليه، هو أن توأم روحي شخص يصدّقني حتى عندما يعتقد العالم كلّه أنني أكذب. وأكثر من

ذلك، فهذا الشخص هو الذي يُرشدني إلى كثبان الرمل التي أغفلتها، ولسان الماء الذي لم ألاحظه».

«توقف، توقف هنا تماماً!». قال الشحاذ معطياً بيده إشارة الوقت المستقطع. «بني، من الآن وصاعداً سيكون عليك أن تدفع لقاء ما تقوله لهذا الرجل العجوز. كل كلمة تتفوّه من دون موافقتي ستكلّفك ريالاً كاملاً واحداً!».

ابتسم ماتياس.

«الذي أمر واحد فقط أقوله لك يا بني. أنا آسف، لكن كوني أقرأ الوجوه لا علاقة له بالضوء الذي قد تريده على وجه سيدتك الصغيرة. أوَتعتقد أن من السهل العثور على ضوء على وجه؟ فأنا في حياتي الطويلة لم أر إلا واحداً، عند شقيقي جو، رأيت ذلك الضوء على وجه شقيقي جو. وكان ساطعاً كثيراً. العام ١٩٦٢. كاديلاك، جديدة بالكامل، وذات لون معدني أيضاً. أسود لؤلؤي! كنت أعمل على بابها، بينما جو يُبقي عينيه مفتوحتين بالكامل. بدا أننا تمكنا منها، ثم سمعنا فجأة وقع خطوات، فاستدرت صوب جو. عند هذه اللحظة انبهرت عيناي. وبفضل مصباح الخمسمئة شمعة التابع لشرطي الولاية، أصبح وجه جو كله ضوءاً... ضوءاً ساطعاً، ساطعاً! جو الفاجر أشرق نوراً».

غرق ماتياس في الضحك.

«بني، دعنا ندخل في صلب الموضوع. أباق أنت أم راحل؟».

«ماذا تعتقد أنني أفعل هنا في هذا الوقت من النهار؟ أنا منفتح على أي اقتراح. ثمة أمر واحد أعرفه، وهو أنني إذا غادرت فإلى الأبد. من الأفضل لنا نحن الاثنين ألا نترك الأمر يأخذ مدى أكبر. وأنا قد ذهبت بالفعل إلى أبعد مما ينبغي. عرفت ذلك منذ البداية، لكن لم يسعني شيء حياله. تحادثت معها. دعوتها إلى فنجان قهوة، أخبرتها عن نفسي وحاولت أن أفهمها. والأسوأ من ذلك كله، أنني حاولت التأثير فيها. ما وجب أن يحصل أي من ذلك. وأنا الآن أفكّر في الرحيل بلا وداع. قل لي، ما الذي يجب أن أفعله؟».

«ارحل، بنيّ».

«أرحل عنك، أم عن المدينة؟»

«لا تسألني ما تعرفه بالفعل. فأنا أقول بأن تبقى، وأنت تريد الرحيل. أنا أقول تمتّع... تعرّف إلى السيدة الصغيرة؛ خذها إلى أمكنة؛ كن سعيداً. إلا أنك تنوي الرحيل. جئت إلي لأنك لم تستطع إقناع نفسك بالبقاء. رأيت ذلك على وجهك، قبل أن تجلس، رأيت أنك سترحل. هكذا أقرأ الوجوه، يا بني. زجاجتان كبيرتان من الكولا تساويان تسعة ريالات، فكن ضيفي. أنا رجل شريف، لا تنسَ، وأحترم عملي».

بعدما احتفظ ماتياس بالصمت لبرهة، مد يده إلى الشحاذ:

«سأفتقد أحاديثنا الصغيرة، يا صديقي».

٢١

سبق لماتياس أن قال لها إنه «يمكن أن يتغيّر المرء في غضون أيام قليلة». فهل يصح الأمر في يوم واحد؟ هل يمكن لإنسان كان في يوم ما حسّاساً ومهتمّاً، أن ينهض ويغادر في اليوم التالي بلا أي وداع؟

أخشى أنه يستطيع، قالت ديانا في نفسها، حيث إنها لم تره في خلال الأمسيات المنصرمة الست.

عادت ديانا للتو من نزهتها المسائية، وأخذت تقلّب الأرقام في دليل هاتفها، متسائلة كيف توصّلت إلى معرفة هذا العدد الكبير من الناس. وربما اختارت من بين كل هذه الأرقام، رقم إحدى الفتيات فتدعوها إلى فنجان قهوة، وتفتح الموضوع الأساسي قبل مضي الكثير من الوقت. وستستمع، من ثمّ، إلى بضعة سيناريوهات من صديقتها، تُبرز الأسباب المعقولة حول رحيل الفنان على هذا النحو. وسرعان ما

ستقتنع بأن السبب ليس عدم انجذابه إليها، وستبقى صورتها عن ذاتها غير ملطّخة.

لا أعتقد أن ماريا ستتصرف بهذه الطريقة، قالت ديانا في سرها.

رمت بدليل الهاتف على الطاولة، ليس لأنها تتنافس مع ماريا، لكنها لم تعد تشعر وحسب بأن عليها الاتصال بأحد. لكنها طلبت رقماً آخر، هو رقم وكيل السفريات في الفندق.

«مرحباً، كيف يمكننا خدمتك؟».

«هاي سارة، أنا ديانا. أريد منك معروفاً. إذا لم أكن مخطئة، فإن قصر توبكابي هو في اسطنبول، صحيح؟ هل يمكنك، بعد التحقق من ذلك، أن تحجزي لي على طائرة يوم الجمعة؟ واجعلي تاريخ العودة مفتوحاً».

«هل سمعتُ بوضوح يا آنسة أوليفيرا... هل قلت يوم الجمعة؟».

«نعم، هذا ما قلته».

«لكن، ماذا عن تخرّجك يوم الأحد؟ هل تم تأجيله؟».

«كلا، لكن عليّ المغادرة فوراً».

«هل كل شيء على ما يرام، كما آمل؟».

«لا تقلقي يا سارة. كل شيء كما يجب أن يكون».

الجزء الثاني

٢٢

كانت ديانا لا تزال تحمل في يدها الرسالة التي قرأتها مرات عدة في خلال الرحلة، عندما أعلن ربان الطائرة عن موعد الهبوط الوشيك.

الرسالة الرقم ٣: «الفناء في الوردة».

«١ آذار/مارس

أمي الحبيبة،

منذ نحو عام، مرّ وقت بالكاد تناولت فيه الطعام أو الشراب. فقدت الاهتمام بكل الأمور التي استمتعت بها في السابق. لم أغادر غرفتي قط، وأمضيت معظم الوقت بصحبة ورودي التي أخذت في بث عطر لم يسبق لي أن تنشّقت رائحته من قبل.

امتلأت كل زاوية من زوايا غرفتي بالورود التي أخذت أزرعها بعد عودتي من حديقة الورد. شعرت بأنني أشبه ببائع الأزهار الذي لا يستطيع بيع وروده.

حصل في أحد الأيام أمر غريب جداً: سمعت الورود تتنفّس. استمرّ هذا لأيام، وكانت تنطلق منها نسمة طريّة أحياناً... تنساب في شعري كما لو كانت لتمحو من ذهني كل أثر من آثار ماضيَّ.

وفي إحدى الأمسيات، أصبحت تلك النسمة قوية فعلاً، بل ازدادت قوّة في خلال الليل، وانخفضت شيئاً وشيئاً، حتى تلاشت مع انبلاج الفجر. وفجأة، امتلأت الغرفة بضوء يُغشي البصر. أصبح كل مكان ساطعاً على نحو مبهر، ساطعاً إلى درجة أنني لم أتمكّن من رؤية أي شيء. وعمَّ الغرفة صمت أصمّ.

خرق الصمت صوت الوردة عندما رأيت الوردة الموجودة عند رأس سريري، تتحدث إلي. لكن بدا أن الصوت لا يأتي من الوردة، بل مني، من داخل ذاتي!

أخذ الصوت يقوى أكثر فأكثر، مرتفعاً في تصاعد تدريجي بلغ حداً لم أعد معه أسمع، وأرى، وأشم أي شيء آخر. كل ما أمكنني رؤيته، وشمّه، ولمسه، هو صوت وردتي.

أصبحت خائفة من نفسي. لا، هذا ليس ممكناً. كيف يمكنني أن أخاف من نفسي؟ فأنا لست هناك حتى. الوردة وحدها موجودة. . . صوت الوردة.

تحدّثت كلتانا بذلك الصوت الواحد:

«السلام عليك يا ماريا».

«لا أصدّق الأمر! لا أصدّق أنني أستمع إلى وردة!».

«لا يا ماريا، بل لأنك تصدّقين يمكنك سماعي».

«لكن هذا فوق الخيال!».

«بالنسبة إلى من هم فوق، ما هو عُجاب يبدو عاديّاً».

«لا أعتقد أنني أستحق مثل هذا المديح».

«ولهذا أنت تستحقينه».

«الآن، وقد استمعت إلى وردة، هل يمكنني سماع أمي أيضاً؟».

«تحادثك أمّك عبر كلّ شيء. إلا أنك ستدركين هذا فقط بعدما تستمعين إلى سقراط، وعندها تسمعين صوتها».

«أين يمكنني إيجاد سقراط؟».

«لا يمكنك إيجاده. هو سيجدك».

«لكن، متى؟».

«عندما يحين الوقت المناسب».

كانت تلك الكلمات الأولى والأخيرة التي سمعتها من الوردة. ومنذ ذلك الوقت إلى اليوم وأنا أنتظر ظهور سقراط. أنتظره تماماً كما انتظر الثعلب أن يأتي الأمير الصغير ويدجّنه. وأنا يا أمي، برغم أن عنوانك أمامي، أعرف أنني لن أسمع صوتك قبل أن ألتقي سقراط.

إلا أنني متأكدة من أنه سيجدني. متأكدة، لأن وردتي قالت ذلك. من يدري، ربما ألتقي بسقراط في ريو دي جانيرو.

على أمل أن أرسل إليك رسالتي الأخيرة عندما أصبح هنا.

مع كل محبّتي...

ماريا».

٢٣

انتظرت ديانا أمتعتها في المطار ما يقارب الساعة، وفقدت ثلاث مرات دورها في الصف الذي ينتظر التاكسي بعدما دفعها الناس المستعجلون جانباً. اضطرت إلى تحمّل سحب الدخان الخانقة من السائق الذي يدخّن السيجارة تلو السيجارة. هالتها حركة السير التي أخذت تتحرّك أبطأ من تحرّك المشاة. وفشلت في إقناع باعة الشارع في جادة السلطان أحمد، بأنها لا تحتاج إلى سجادة. والأسوأ من ذلك كله: ها هي الآن، بعد توجهها بالسيارة إلى كل مضافة باحثة عن حديقة غير موجودة خلفها، لا تستطيع أن تخفي دمعتها عن الرجل الذي قاربها قائلاً «مرحبا أيتها السيدة الجميلة، هل تريدين دليلاً سياحياً وسيماً؟». لو أنها تتمكن فقط من إيجاد مضافة زينب هانم، لما عاد أي من ذلك يهم.

عثرت على زاوية خالية في كنيسة القديسة صوفيا، وبكت وهي تحدّق في الجدار إلى أن حان موعد الإقفال. لقد بدت

جدرانها، برغم تشققها وتداعيها، منخرطة في قتال وصراع ضد الزمن للتشبّث بالذكرى الروحية للملايين من الناس. ربما المثابرة مجدية من أجل قضية كهذه. لكن، هل من المجدي أن تعذّب نفسها في قضية العثور على ماريا؟

عندما نبه الجميعَ حارسُ المتحف للمرة الثالثة، من أن «المتحف على وشك الإغلاق»، غادرت ديانا القديسة صوفيا وهامت بلا هدف في اتجاه قصر توبكابي. بلغت فوّارة الماء التاريخية قبالة المدخل الرئيسي، فجلست على الأرض مسترخية، مطمئنة إلى عدم إقفال المكان.

كانت تتساءل بينها وبين نفسها إن كانت ستتمكن من حجز مقعد لها في الرحلة التالية إلى الديار، حينما سمعت صوتاً من فوقها:

«مررت بيوم عصيب، أليس كذلك؟».

عندما رفعت ديانا رأسها، رأت امرأة أجنبية في منتصف العمر، أنيقة الثياب، تنظر إليها بنصف اهتمام ونصف تكرّم، كما لو أنها لم تر أحداً من قبل يجلس في الشارع.

«لا تسألي»، قالت ديانا. «تعرّفت إلى جميع الفنادق. وها أنا الآن أتعرّف إلى الشوارع».

«نعم، فقد بدأ الموسم الكبير. ونحن أيضاً وجدنا صعوبة في العثور على غرفة».

أشارت المرأة إلى طريق ضيّق يلتف إلى جانب سور القصر. وقالت، «أحببنا في الواقع البقاء في واحدة من المضافتين الموجودتين هناك، لكنهما محجوزتان بالكامل. لهذا اضطررنا بدلاً من ذلك إلى النزول في «الفور سيزنز».

«آه!»، قالت ديانا وقفزت على قدميها. «دعيني ألقِ نظرة على هاتين المضافتين بنفسي. . . وأنت تمتعي بـ «الفور سيزنز»».

٢٤

وُجد قبالة ديانا تماماً منزلان خشبيان كبيران. كان المطلي بلون الشامبانيا أكبر حجماً. وبدا، بالنسبة إلى مظهره، أكثر فخامة. له مدخل إلى الحديقة. أما المنزل الآخر فمطلي باللون الأخضر الطبشوري. كان مدخله موجوداً مباشرة على الشارع، لذا، لم تتمكن من أن تخمّن وجود حديقة خلفه، أم لا.

تشوقت ديانا إلى الهروع إلى واحد منهما؛ لكنها، بسبب عدم قدرتها على تصوّر زينب هانم في ذهنها، لم تستطع أن تقرر أيّاً من المنزلين قد يكون منزلها. وفي الحقيقة، لم يكن أي منهما.

اختارت أن تجرّب الأكبر أوّلاً. تفقّدت الحديقة وهي تتوجه صوب المدخل. لم يمكنها أن تشاهد وردة واحدة برغم وجود تنوع الأزهار من كل الألوان: الصفراء، والزهرية، والأرجوانية، والقرمزية، والبرتقالية. عادت أدراجها، ودخلت البيت الثاني عبر مدخل ضيّق.

كان عامل الاستقبال في الداخل مشغولاً على الهاتف. وبعدما انتظرته سبع عشرة دقيقة بالتمام والكمال ليُنهي مخابرته، فقدت ديانا الأمل في النهاية، وأوقفت نادلاً صدف مروره، وقالت وهي تلفظ كل مقطع بعناية، «هل زينب هانم هنا؟».

«خرجت يا سيدتي منذ نصف ساعة. لكنها قالت إنها ستعود في غضون ساعة».

تردّدت ديانا المدهوشة للحظة.

«آه... حسناً... هل تتكرّم وتقول لها، عندما تعود، إن ثمة شخصاً يودّ رؤيتها؟».

«بالتأكيد سيدتي. يمكنك، إذا شئت، الانتظار في مضافة الشاي».

لم أتوقّع أن يكون الأمر بمثل هذه السهولة، فكرت ديانا. بدا كما لو أن القَدَر الذي أخذ يعاكسها حتى الآن، قد قرّر فجأة أن يمدّ إليها يد المساعدة.

٢٥

كانت مضافة الشاي، المؤلفة من أربع مناطق جلوس منفصلة، جيّدة الإضاءة ومفروشة بأسلوب تركي أصيل. لم يكن أحد في الجوار إذا استثنت النادل الذي يرتدي سترة مطرّزة بالذهب.

زيّنت سجادات ذات أنماط بسيطة من الأحمر الفخاري، والأصفر الخردلي، والأزرق، الأرضية الخشبية الداكنة. وقد عُلّقت على الجدران لوحات تصوّر مشاهد مختلفة لاسطنبول القديمة: مراكب عثمانية عند الرأس الذهبي، جوامع ذات منارات تتبارى لبلوغ السماء، احتفالات الدراويش الدوّارين، منازل خشبية كبيرة تمتد على طول شواطئ البوسفور...

في غضون فترة وجيزة، أيقظ صوت خطوات مقتربة ديانا من شرودها قبالة اللوحات.

جاءت إلى مضافة الشاي امرأة ذات ملامح رقيقة وعينين زُرقاوين واسعتين، وشعرها، الذي أخذ يشيب في بعض

الأماكن، مرفوع إلى أعلى عند مؤخرة رأسها، وسحنة وجهها الجميلة لا توحي بعمرها. وقد أضفى عليها فستانها الكتاني الأبيض مظهراً متميّزاً.

ما إن التقت أعينهما حتى فتحت المرأة المسنّة يديها وهرعت صوب ديانا:

«يا إلهي، لا أصدّق عيني! ماريا، إنك أنت! يا للسيدة الجميلة التي أصبحتِها!».

عانقتها زينب هانم بطريقة ذكّرت ديانا، للحظة، بوالدتها. لطالما شعرت ديانا، عندما كانت والدتها تعانقها، بأن أمها هي التي ستتوقّف أولاً.

«آه، دعيني أنظر إليك»، قالت زينب هانم، وهي تأخذ وجه ديانا بين أناملها.

«آسفة، لكنني لست ماريا»، قالت ديانا وهي تنتزع نفسها. «اسمي ديانا».

ابتسمت زينب هانم. «وكيف أنساك يا ماريا؟».

«لا، حقّاً، أنا لست هي. أنا توأمها».

رمقتها زينب هانم بنظرة شك. «ماريا، عزيزتي، ليست لديك توأم».

«أرجوك أن تصدّقيني. فأنا في الواقع جئت لأسألك عن ماريا».

«ماذا تعنين؟ فأنت بالتأكيد التي اتصلت هاتفياً في ذلك اليوم، وقلت إنك آتية إلى هنا هذا الأسبوع».

«ماذا؟ هل اتصلت بك ماريا؟ قالت إنها ستأتي إلى هنا؟ أين هي الآن؟».

أخذت زينب هانم ديانا صوب أحد الكراسي، كما لو أنها تريد تهدئتها. جلست على الكرسي المقابل، وسألت «إذاً، أنت قطعاً لست ماريا؟».

«عليك أن تصدقيني. أرجوك قولي لي أين ماريا، ومتى تصل إلى هنا؟».

«ليس الأمر أنني لا أصدّقك يا عزيزتي، لكن. . .».

«أرجوك، متى تصل ماريا؟».

«لم تقل بالتحديد في أي يوم ستصل، لكن عليها أن تكون هنا في غضون الأيام الثلاثة أو الأربعة المقبلة. لا أملك أي فكرة عن مكان وجودها الآن. فقد مضت تسعة أعوام منذ أن رأيتها. وهي المرّة الأولى التي تتصل بي من حينها. لكن ماذا عنك؟ ألم تريها مؤخّراً؟».

«إنها قصة طويلة. لكن، إذا كنت على استعداد لسماعها، فأنا هنا لأتشارك في الأمر معك».

«أودّ سماعها بالتأكيد. لكن قولي لي أولاً ماذا تحبّين أن تشربي. هل أنت جائعة؟ يمكنك أن تطلبي ما تشائين. لديّ شاي أخضر مع نعناع طازج. أوصيك بهما».

«شكراً، لكنني أفضّل فنجان إكسبريسو».

«في الحقيقة لدينا إكسبريسو، لكن ربما تريدين أن تجرّبي فنجان قهوة تركية؟».

«لمَ لا؟».

غادر النادل غرفة المضافة بسماعه الطلب.

٢٦

انتهت ديانا، مع عودة النادل وبيده صينية شاي فضّية، من رواية كل ما حدث لزينب هانم.

«آسفة، يا ديانا»، قالت زينب هانم وهي تضع يدها فوق يد ديانا. «لكن، لا تقلقي في خصوص ماريا. فهي ليست شخصاً يتسبب في الأذى لنفسه... لكن، ماذا عنك يا عزيزتي؟ لا بد من أنك مررت في وقت عصيب جداً».

«أحاول أن أستجمع نفسي. لكن، حتى أتمكن من ذلك، علي إيجاد ماريا أوّلاً. أحتاج إلى مساعدتك. إذا اتصلت من جديد، أفضّل ألاّ تخبريها عني إلى أن تصل إلى هنا، أموافقة أنت؟ كذلك، سأكون سعيدة بالحصول على رقمها حيث هي إذا أمكنك العثور عليه».

«بالتأكيد، سأفعل ما يمكنني فعله في حال اتصلت هاتفياً. أنا سعيدة جداً لأنك ستلتقينها، يا ديانا. فماريا فتاة فوق

العادة. من المحزن أنكما لم تلتقيا طوال هذه السنوات الطويلة».

التقطت زينب هانم إبريق الشاي الفضي، وملأت كوبي الكريستال أمامها. تحققت إذا كانت ديانا تستمتع بقهوتها قبل أن تسأل «ما الذي قالته ماريا عنّي في رسائلها؟».

أحست ديانا بالاستغراب، لسماعها هذا. ففي حماستها لمعرفة أن ماريا ستأتي إلى هنا، غاب عن ذهنها سؤال حول أي نوع من الأشخاص هي زينب هانم. أليست هي التي علّمت ماريا التحدث مع الورود؟

ألقت نظرة متفحّصة أخرى على زينب هانم، وهي، بعينيها الباسمتين، والتعبير الهادئ على وجهها، رخامة صوتها، التي لا تشوبها شائبة، لم تبدُ سليمة العقل وحسب، بل بدت أيضاً سيّدة بكل ما للكلمة من معنى. وهي، لربّما، ستبتسم تعاطفاً عندما تسمع ما قالته عنها ماريا، وستطيّب خاطر ديانا بشرحها لماذا كتبت توأمها مثل هذه الأمور في رسائلها.

«أعرف أن الأمر قد يبدو لك مستغرباً»، قالت ديانا، «لكن ماريا كتبت في واحدة من رسائلها أنك علمتها كيف تستمع إلى كلام الورود».

وبعكس توقعاتها، لم تُبد زينب هانم مندهشة البتة.

أرادت ديانا أن تسمعها تقول إن «سماع الورود تحكي»، ليس إلا لعبة لعبتها مع ماريا، أو أن الأمور التي تحدّثت عنها ماريا في رسائلها ليست إلا مجرّد تعبير عن مخيلتها الواسعة. أرادت سماع هذا النوع من التفسير، لأنها ستشعر بالضيق لجلوسها مع إنسانة لن تنفي فكرة أن في وسعها تعليم الناس كيفية الاستماع إلى الورود.

«إذاً، هذا ما كتبته ماريا»، قالت زينب هانم. «هذا لا يُصدَّق، أليس كذلك؟».

لم تعرف ديانا في أي خانة تضع هذا السؤال. كاد لسانها ينزلق ويقول «نعم هذا لا يُصدَّق مطلقاً»، لكنها غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة، وقررت بدلاً من ذلك سبر غور زينب هانم.

«أوَليست الحقيقة لا تُصدَّق أيضاً؟»، قالت ديانا بهدوء. «خذي الأرض على سبيل المثال، فهي تبدو مستقرة جداً تحت أقدامنا، لكنها في الواقع تتحرك بأسرع من الطائرة».

لم تعلّق زينب هانم قط. أدركت ديانا أنها لن تقول شيئاً، فانتهت إلى السؤال «هل حقيقة علّمتِ ماريا الاستماع إلى الورود؟».

أخذت زينب هانم رشفة من كوب الشاي: «ديانا، كوني

ضيفتي الخاصة إلى أن تصل ماريا. فهنا نخدم أيضاً أناساً لا يستطيعون سماع الورود. وأنا متأكدة من أن الفريق كلّه سيشعر بالفخر لخدمة توأم ماريا».

تساءلت ديانا إذا كانت زينب هانم تحاول حماية ماريا وحسب؛ أم أن ديانا تواجه إنسانة تستمتع بالظهور بمظهر غامض... أم هل يوجد سبب مختلف كلّياً وراء سلوك زينب هانم؟

«شكراً، لا يمكنني أن أقبل ذلك، إلا أنني أودّ أن أبقى إلى أن تصل ماريا، ويمكنني أن أدفع بدل أجرة غرفة إذا توفّرت واحدة لديك».

«آسفة يا ديانا، فالمضافة محجوزة بالكامل. الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أساعدك فيها، هي أن توافقي على أن تكوني ضيفتي الخاصة».

أشارت زينب هانم إلى النادل بالمجيء، وقالت له شيئاً بالتركية قبل أن تعود إلى ديانا.

«تبدين تعبة، يا عزيزتي. ثمة من يساعدك للوصول إلى غرفتك. وإذا احتجت إلى شيء، اطلبيه من موظفي الاستقبال. وفي أي حال، سنلتقي من جديد عندما تصل ماريا إلى هنا».

أمكن ديانا أن تحس بأن زينب هانم، برغم كونها لطيفة، كانت خائبة الأمل، لأن التي تجلس أمامها ليست ماريا. وفكّرت للحظة في أن تغادر بعد أن تشكرها، وتخبرها بأنها لا تريد غرفتها، ولا ضيافتها على حساب ماريا».

لكنها عوضاً عن ذلك، هزّت رأسها موافقة على عرضها.

٢٧

أمضت ليلة نوم هانئة، نزلت بعدها باكراً لتناول الفطور. رأت، وهي تدخل غرفة الإفطار، زينب هانم جالسة وحدها إلى طاولة قرب الباب.

أخذت ديانا نَفَساً عميقاً استباقاً لما هي على وشك القيام به. لم تكن ستفعل ذلك لأنها صدّقت توهّمات ماريا، أو لأنها تريد أن تُرضي زينب هانم. كان هدفها الوحيد أن تفهم على نحو أفضل كيف أصبحت ماريا على ما هي عليه.

«اعذريني، آمل أني لا أزعجك»، قالت ديانا.

«كلا ياعزيزتي، لكنني على وشك الرحيل».

أخذت ديانا نَفَساً عميقاً آخر، وقالت بحزم «أحب لو أنك تعلّمينني ما علّمته لماريا».

نظرت إليها زينب هانم بصمت. بدا كما لو أن هذه النظرة اخترقت ذهن ديانا، قارئة أفكارها ومشاعرها كلها، قبل أن تتركها مرّة أخرى وحدها مع ذاتها.

«ألا تريدين الجلوس يا ديانا؟».

«هل يعني هذا أنك توافقين؟».

«أوافق على ماذا؟».

فكّرت ديانا في أنها تتصرّف كما لو أنها لم تفهم، بل ربما أرادت أن تبدو أكثر غموضاً، وعلى ديانا أن تغلبها في لعبتها.

«أريدك أن تعلّميني كيف أستمع إلى الورود، تماماً كما علّمت ماريا».

«لماذا تريدينني أن أفعل هذا؟».

«لا بد من أنها تجربة مثيرة وجميلة كي تؤثّر في ماريا بهذا القدر».

اختفى عن وجه زينب هانم فجأة ذلك التعبير الهادئ الذي يبدو على الدوام كأنه يمهّد الطريق لابتسامة.

«وهل تعتقدين أن ذلك يساوي ما سأطلبه في المقابل؟».

«وما هو ذلك؟»، سألت ديانا.

«أريدك أن تقتلي ذاتك».

لم تكن ديانا متأكدة إن كان ما تسمعه مزحة، أم قطعة أخرى من قطع الأحجية. لذلك، لم تقل شيئاً، واكتفت

بالضحك. توقّعت أن تضحك زينب هانم أيضاً، لكنها لم تفعل.

«هل طلبت الأمر نفسه من ماريا؟».

«انتفت الحاجة إلى ذلك. فماريا لم تمتلك ذاتاً تشكّ في أنه يمكن الورود أن تحكي، أو أن تُسمَع. ماذا بالنسبة إليك يا ديانا، هل لديك مثل هذه الذات؟ هل تعتقدين أنه يمكنك سماع الورود، أم أنك تشكّين في ذلك؟».

«آه، رجاءً! عندما جاءت ماريا إلى هنا، لم تكن سوى طفلة. عندما كنت في ذلك العمر اعتقدت بوجود أشياء هي بالأحرى أكثر غرابة من التحدّث إلى الورود».

«مثل ماذا؟».

«مثل، مثل... اعتقدت أن في إمكاني السباحة حول العالم، والطيران أو التحدث إلى الملائكة... تعوّدت والدتي أن تقول لي إن والدي عند الله. لذا عاهدت نفسي على أن أسبح حول العالم لأجد المكان الذي يعيش فيه الله ووالدي. وإذا لم أجد والدي في أي مكان في البحر، فسأضع أكبر زوج من الأجنحة للبحث عنه في السماء. وإذا لم أتمكن من إيجاده هناك أيضاً، فسأطلب من ملاك أن يأخذني إليه. لماذا؟ لأنني كنت طفلة! هل تعلمين ماذا كانت حقيقة والدي؛ أين كان عندما حلمت بإنجاز هذه الأمور كلها؟».

توقّفت ديانا، وهي على استعداد للانفجار بالبكاء. «آه، لم يعد الأمر يهم».

«ثم، ماذا حصل يا ديانا؟».

«ماذا تعنين بماذا حصل؟».

«متى تخلّيت عن البحث عن والدك أو الحلم بأنك سترينه من جديد؟ من أخبرك أنه ما من سبيل كي تجديه».

انتصبت ديانا واقفة: «أنا آسفة، كانت تلك غلطة. إنها غلطتي. أعدك بألا أضايقك من جديد».

«تماماً كما فكّرت»، قالت زينب هانم. «ديانا غير مستعدة للموت، وبالتالي لن تتمكن أبداً من الاستماع إلى الورود».

أدارت ديانا ظهرها لزينب هانم، وسارت صوب الباب. إلا أنها بقيت تسمع السؤال الذي همست به من ورائها:

«من تعتقدين أنه يدرك قيمة الحياة أكثر ما يكون، يا ديانا؟».

توقّفت ديانا، وانتظرت، بدون أن تدير رأسها.

«أولئك الذين ذاقوا طعم الموت»، قالت زينب هانم.

عادت ديانا إلى الطاولة: «أرجوك قولي لي، ما الذي تريدينه منّي؟».

«أمر واحد وحسب: اقتلي الذات في داخلك التي لا تؤمن بأنه يمكن سماع الورود. فتذوُّق مثل هذه الميتة سيمنحك الحياة التي يمكنك فيها سماعها. وأنا أسألك فقط القيام بهذا لأنك أردتني أن أعلّمك كيف تستمعين إلى الورود».

«حسناً، دعيني أصدقك القول»، قالت ديانا. «إذا كان هذا الشيء المسمّى سماع الورود، هو ما أظنّ أنه عليه، أي إذا كنت توحين بأن المرء يمكنه سماعها حسّيّاً، فأنا لا أعتقد أن ذلك ممكن. وأي ادعاء بالعكس لا يوقظ فيّ أدنى فضول. لكن، إذا كنت تقولين، برغم ذلك، إن في إمكانك تعليمي، فأرجوك إذاً أن تفعلي».

«لكن يوجد بعض الشروط»، قالت زينب هانم.

«مثل ماذا؟».

«الأمر بسيط جداً. تقومين تماماً بما يُطلب منك. أنت حرّة في التخلّي عن الدروس، لكن ما دمت مستمرة بها، فيجب أن تفعلي بالتحديد ما أقوله. ستجري الدروس في الأوقات المحددة في الحديقة خلف المنزل. لا يمكنك أن تتأخري ثانية واحدة. الأفضل ألا تأتي أبداً على أن تتأخري. ففي الحديقة، كلام البستانية، أي كلمتي لأكون دقيقة، هي القانون. سيكون مجموع الدروس أربعة. في غضون ذلك الوقت، الذي يمكن اعتباره تدريباً على فن الاستماع إلى

الورود، يُمنع عليك الخروج من المضافة من دون مواكبة. ولدي أيضاً شرط آخر: سيرة حياة على بياض».

«سيرة حياة على بياض؟».

«من الطبيعي أنك تملكين سيرة حياة امرأة شابة وُلدت في زمان محدّد، وفي مكان محدّد، وفي محيط اجتماعي محدّد. لو أنك وُلدت في ريو دي جانيرو بعد قرون لاحقة عدة، أو ترعرت على أيدي الهنود الحمر قبل قرون سابقة عدة، أو نشأت في جزيرة في جنوب المحيط الهادئ اليوم، لكانت خبرتك الحياتية مختلفة تماماً. وربما، إذا لم يكن من المؤكد، فإنك ستملكين إدراكاً مختلفاً كلّياً للحياة وفهماً لها، وربما النقيض التام لذلك الذي تملكينه الآن.

«سِيَر الحياة كلّها نسبيّة، إلا أننا نسمع الورود في جزء من ذواتنا ليس مرتبطاً بالزمن والمكان أو البيئة الاجتماعية التي نعيش فيها. لهذا، عليك أن تمحي الأجزاء كلها من سيرتك: التعليم، الخبرة السابقة، وبالأخص الجزء المتعلّق بالمراجع. لو أن لهذه الأمور فائدة في حديقة ورد، لكان علماء النبات أول من يسمعون الورود. ما تعلّمته حتى اليوم، لن يشكّل إلا متاعاً لك هنا، وهو متاع ثقيل أيضاً».

نظرت ديانا إلى زينب هانم فجأة، كما لو أنها تذكّرت شيئاً. و«المياه لن تحملني مع هذا المتاع، أليس صحيحاً؟».

«صحيح. أين سمعت ذلك؟».

«استناداً إلى واحدة من رسائل ماريا، فإن والدتي قالت لها الشيء ذاته تقريباً في الحلم. لكن ماريا تقول إن الكثير مما رأته في حلمها، تحقق لاحقاً».

«أمر طبيعي»، قالت زينب هانم. «فالأحلام هي خميرة الواقع».

لم تكن ديانا راغبة في مزيد من الكلام عن أحلام ماريا، فقالت «حسناً، كنّا نتحدّث عن الشروط... افترضي أنني أوافق على الالتزام بها كلها، فما الذي أحصل عليه في المقابل؟».

«مهما يكن مقصدك في الدخول إلى الحديقة، فهو ما ستحصلين عليه. ليس ما تفعلينه في الحديقة هو المهم، بل المهم هو سبب قيامك به. إذا كان مقصدك من تعلّم الاستماع إلى الورود جعلك مختلفة عن الأناس الآخرين فحسب، فأنا أخشى أنك لن تكسبي سوى الباطل. وإذا كان هدفك أن تستمعي إلى الورود وحسب، فستستمعين إليها. أو إذا كنت، على غرار ماريا، تدخلين الحديقة لسماع صوت أمك من خلال الورود، فستسمعين صوتها. وإذا أردت، في ما عدا ذلك، أن تختبري شيئاً جديداً للتسلية، فذلك ممكن أيضاً على حساب خسارتك».

بدا كل شيء أشبه بمزحة. فهذه السيدة الطاعنة في السن، التي بدت، حتى لفترة وجيزة، إنسانة ذات طبيعة هادئة، تحوّلت فجأة إلى مديرة لا تقبل إلا الأفضل، ولا تسامح على أي خطأ؛ أو أضحت كما لو أنها جنرال يمطر مساعده الميداني بالأوامر، كما لو أن الموضوع الذي تحاضر عنه بمثل هذا الجد، لا يتعلّق بالأزهار، والعصافير، والنحل!

«ثمة أمر يشغل بالي»، قالت ديانا. «ففكرة سماع أصوات الورود مثيرة للنفس، سواء أأعتقد بها المرء أو لم يعتقد. ومن جهة أخرى، فإن الشروط التي عدّدتها ومقاربتك، حسناً... لا تفهميني خطأ، لكن ذلك كله يبدو متصلّباً ومحدداً».

«غيوم المطر، المطر، الماء، كلها أمور مثيرة للنفس أيضاً. إلا أننا نحتاج في النهاية إلى كوب محدد لإرواء عطشنا».

صمتت ديانا لبرهة قبل أن تسأل «قلت أربعة دروس فقط، أليس كذلك؟».

«أربعة فقط».

«حسناً، أنا موافقة إذاً».

نهضت زينب هانم واقفة. «درسنا الأول يبدأ غداً الساعة

٦,١١. موضوعنا هو رياضيات سماع الورود. لا تحتاجين إلى أن تجلبي معك أي كتب عن الجبر، أو الهندسة، أو أي شيء من هذا القبيل. كوني فقط في الوقت المحدد عند الكراسي على مدخل الحديقة، وهذا يكفي».

«عند الساعة ٦,١١ صباحاً؟!».

«بالضبط».

هزّت ديانا برأسها موافقة برغم أنها لم تسعد بفكرة النهوض باكراً إلى هذا الحد.

«حسناً. دعينا نواقت ساعتينا»، قالت زينب هانم. «آه، كدت أنسى. إذا تمكنت من سماع وردة عند إنهاء دروسنا، فإن مكافأة ستكون في انتظارك».

«أنت ترين حقيقة إمكان حصول ذلك، أليس كذلك؟ يجب أن يكون لديك إيمان كبير بي».

«ما دمت تؤمنين بنفسك فسأؤمن بك».

«وما هي المكافأة إذاً؟».

«قول مأثور عزيز جاء عبر القرون».

«وماذا إذا لم أنجح؟»، سألت ديانا بابتسامة زوراء. «أما من قصاص للإخفاق في الصف؟».

«صمت الورود»، قالت زينب هانم. «عدم القدرة على سماع الورود، قصاص كاف لأولئك الذين يخفقون في سماعها».

٢٨

جلست ديانا على أحد المقاعد العالية، قبل خمس دقائق من الموعد الذي حدّدته زينب هانم للأمثولة. كان السياج الخشبي المحيط بالحديقة أعلى من أن يسمح لديانا بالرؤية من فوقه. أما باب الحديقة، فبدا قياساً على السياج المرتفع، منخفضاً على نحو استثنائي.

تسمّرت عيناها على عقارب الساعة في يدها، وذهنها يتساءل عما يمكن أن تعنيه رياضيات سماع الورود. وهي، مهما وسّعت مخيّلتها، لم تملك أي فكرة عما يمكن أن تحويه أمثولة الرياضيات الغريبة هذه.

ما إن بلغ عقرب الساعة الدقيقة الحادية عشرة بعد السادسة، حتى سمعت صوت زينب هانم، «ليس هذا أمراً يمكنك استيعابه بوساطة الفكر».

ابتسمت ديانا لإخفاء شعورها بالمفاجأة. فهي، برغم

الشكل الذي ظهر فيه الأمر، لم يمكنها الاعتقاد بقدرة زينب هانم على قراءة ذهنها. فأي أمر سوى الأمثولة سيتساءل المرء عنه، وهو ينتظر في تلك الساعة المجنونة، يعدّ الدقائق ليتعلّم كيف يسمع الورود؟

«إذا كان ذلك أمراً لا قدرة لفكري على استيعابه، فقولي لي إذاً، ما هو الاستماع إلى الورود».

«هل سبق لك أن تناولت حبّة زيتون؟»، سألت زينب هانم.

«طبعاً، لماذا؟».

«أتساءل، إن كان في وسعك أن تشرحي لي طعم حبة الزيتون... لنعقد صفقة. إذا استطعت أن تصفي لي طعم حبة الزيتون، فسأصف لك كيف يكون الاستماع إلى وردة».

«طيّب»، قالت ديانا، «حبّة الزيتون... هي... ذات طعم مالح... حسناً... هي أشبه... زيتية... حادة نوعاً ما... أشبه بـ...».

عبست زينب هانم، «آه، يوجد طعم مالح، زيتي، وحاد في فمي. ولحسن الحظ أنني أكلت الزيتون من قبلُ، وإلا، طبقاً لوصفك، فلن أجرّب تذوّقه أبداً».

«حسناً، حسناً، لقد ربحت»، قالت ديانا.

«لنضع الآن جانباً طعم الزيتون، أو الاستماع إلى الورود، ولنقم، ونحن في سبيلنا، قبل الدخول إلى الحديقة، بدرس الرياضيات. هلّا نفعل؟».

«من فضلك، أنا مستمعة».

«يجب على كل شخص أن يدرس بالتأكيد رياضيات الاستماع إلى الورود، سواء آمن بفن سماع الورود أم لم يؤمن. والسبب ببساطة هو أن المعادلة التي ستتعلمينها في هذه الأمثولة، تنطبق على أي مسألة تمتلك عدداً لا يُحصى من الأجوبة الممكنة. لكن، لا يمكن الإجابة عنها بواسطة أي من حواسنا الخمس. لنطرح، على سبيل المثال، سؤالاً مثل: ماذا يحصل بعد الموت؟

«علينا الآن، قبل أن تستميلنا الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، أن نضع في أذهاننا هذه المعادلة: واحد مقسوم على اللانهاية (١/؟). سأتناول ذلك في غضون دقيقة. لكن، قولي لي أوّلاً، هل يمكنك سماع الأغاني التي تنشدها الورود الآن؟».

«تعرفين تمام المعرفة أنني لا أسمع مثل هذا الأمر».

«ما الأغنية التي تنشدها يا ديانا؟».

«قلت لك إنني لا أسمع شيئاً».

«هيا، خمّني فحسب. ربما أصبتِ الأغنية».

أدركت ديانا أن زينب هانم لن تتوقّف، فقالت، «جيّد، حسناً، إنها تغني المطر الأرجواني Purple Rain».

«أتعتقدين أنك خمّنت الجواب الصحيح؟».

«بالتأكيد لا».

«سأعطيك فرصة إضافية. جرّبي مرّة أخرى».

«حسناً، انبلج الصبح Morning Has Broken، لكات ستيفنز».

«أتعتقدين أنك أصبت هذه المرّة؟».

«بالتأكيد لا. هل يمكنني أن أسألك ما الذي ترمين إليه؟».

«لنمتحن قليلاً الآن معرفتك للإحصاءات، وقولي لي ما هي حظوظك في تخمين الأغنية الصحيحة؟».

«تكاد تكون معدومة».

«بالضبط. إن قسمة عدد الأغاني المُنشَدة على عدد الأجوبة المحتملة، تعطينا احتمال الوصول إلى الأغنية الصحيحة عن طريق التخمين. عدد الأغاني المُنشَدة هو واحد. وإذا فكّرت في الأغاني التي كُتبت في جميع أنحاء العالم

على مدى آلاف السنين، بمئات اللغات وبواسطة الملايين من كتّاب الأغاني، يمكن عندها إحصاء عدد الإمكانات بالتريليونات. وإذا أضفنا إلى هذا العدد الأغاني التي لم تُكتب بعد، لكن الورود تعرفها، فيمكننا عندها القول إن لدينا عدداً لا نهاية له من الأجوبة الممكنة. وفي تلك الحال، فإن احتمال الوصول إلى الأغنية الصحيحة، هو: واحد مقسوم على لانهاية. وهذه هي المعادلة التي علينا أن نعرفها قبل أن نتعلّم كيف نسمع الورود. وبالتالي، ما هو واحد مقسوم على اللانهاية؟».

«صفر، على ما أذكر».

«صحيح، لكن لو أنه الصفر العادي فسيعني ذلك أنه لا توجد أي فرصة على الإطلاق لأن يعرف المرء الأغنية التي تنشدها الورود. وبالتالي، فإن واحداً مقسوماً على اللانهاية يساوي صفراً خاصاً».

«صفر خاص؟».

«أنا متأكدة، يا ديانا، من أن معرفتك للرياضيات أكبر من معرفتي. وبرغم ذلك، أودّ أن أسترجع معك بإيجاز القيمة الرياضية لهذه المعادلة.

«لنأخذ أي معادلة من واحد مقسوم على عدد ما... فكلما

ارتفع العدد الذي يُقسَم عليه الواحد، كلما ازداد عدد الأصفار التي تسبق الواحد في الجواب على المعادلة. وإذا قسمنا الواحد على اللانهاية، فسنجد في الجواب عدداً لامحدوداً من الأصفار قبل الواحد. وهكذا، نقرأ في الجواب صفراً فاصلاً صفراً... صفراً... صفراً، حتى اللامنتهى. لكن، برغم أننا لا نراه، يوجد دائماً واحد في منتهى الجواب. إنه صفر، بيد أنه صفر خاص ينتهي بواحد، حتى لو أخفاه اللامنتهى.

«ما سأقوله الآن مهم جداً. ففي حين تبلغنا المعادلة بأن احتمال معرفة الأغنية الصحيحة عن طريق التخمين، هو صفر، فإنها تلمح إلى أن من غير المستحيل الوصول إلى الجواب الصحيح، لأنه يوجد واحد في النهاية.

«عندما سألت عمّا تغنّيه الورود، فإنك أجبت بالطريقة الأفضل بقولك إنك تجهلين. لماذا؟ لأنك عرفت أنك لا تستطيعين المعرفة. أمكنك أن تعرفي، عن طريق التخمين، أن من غير المفيد محاولة الإجابة عن سؤال يحمل عدداً لا يحصى من الإجابات الممكنة، ولا يمكن الإجابة عنه باستخدام الحواس الخمس.

«وهكذا، لا يمكن الوصول إلى الأغنية الحقيقية عبر التخمين المحض للفكر، بل فقط من خلال الاستبيان. علينا أن نفهم، أوّلاً، أننا لا نسمع الورود بآذاننا، بل بقلوبنا.

«يملك قلب كل شخص هذه المقدرة عند الولادة. إلا أن القلوب تصبح صمّاء مع مرور الوقت. وعلى من يرغب في أن يشهد على الورود تغنّي، أن يستعيد أوّلاً هذه القدرة التي يتم فقدانها عندما يتم تعليمنا كيف نصبح كباراً. وهذا ليس ممكناً إلا من خلال الإبقاء فقط على اهتمام دائم بالورود والعناية بها.

«قد لا نستطيع سماع الورود في أول زيارة لنا للحديقة. لكن ليس علينا أبداً أن نفقد الأمل. ففقدان اليقين هو، أوّلاً وفوق كل شيء، عدوّنا في الحديقة إلى جانب أي أفكار أو مشاعر سلبية أخرى.

«تخيّلي جبلاً... الرؤية من قمة هذا الجبل رائعة. وأنت تريدين الوصول إلى هناك، إلا أن القمة تبدو بعيدة جداً إلى درجة أنك تفقدين الأمل في بلوغها. تستسلمين وتقولين: لن أصل إلى هناك أبداً.

«الحقيقة أن خطوات من بلغوا القمة، ليست أكبر من خطواتك. إلا أنهم استمرّوا وهم يخطون الخطوة الصغيرة تلو الأخرى. ليست المعجزات هي التي تجعل المستحيل ممكناً، بل المثابرة. هكذا، تفتت المياه الصخور، وهكذا يسمع أناس القرن الحادي والعشرين الورود.

«إذا اعتقدنا أن في وسعنا سماعها، وإذا ثابرنا، فسيمكننا ذلك عاجلاً أم آجلاً. هذا ممكن، لأنه يوجد دوماً الرقم واحد مخفيّاً عند آخر الأصفار. وإذا ما تبعنا مسار العدمية حتى اللانهاية، فسنبلغ حتماً ذلك الواحد».

«وماذا إذا لم تكن الورود تتحدّث على الإطلاق؟»، سألت ديانا. «أم أنها لا تنشد أي أغانٍ؟ دعيني أطلعك على احتمالات ذلك. إذا كان عدد الأغاني التي تنشدها الورود هو صفراً، تصبح المعادلة صفراً مقسوماً على اللانهاية، ويساوي ذلك صفراً. وليس ذلك صفراً خاصاً هذه المرة، بل صفر ذخر بسيط. وهذا يعني أنه ما من أغنية. وما من سماع للورود».

«صحيح»، قالت زينب هانم. «سبيلان، أحدهما يبدأ وينتهي هنا، الآن، والآخر يمتد إلى اللانهاية. ونحن، في الإجابة عن سؤال هل تغني الورود؟ أو هل يمكنني سماع الورود؟ نختار واحداً من هذين السبيلين. وللسؤالين جوابان ممكنان فقط: نعم أو لا. ما من جواب ثالث. حلّ المعادلة بالنسبة إلى من يقولون نعم هو الصفر الخاص، بينما هو بالنسبة إلى من يقولون لا، صفر ذخر بسيط، كما قلت أنت. وهذا هو سبب عدم وجود أي إمكان لأولئك الذين يقولون لا لسماعهم وردة تغني. وهذا ليس ما يصبون إليه على أي حال.

تكفيهم ذبذبات الصوت التي تلتقطها الأذن. وأي صوت في ما وراء ذلك لا يهمّهم».

«لكن من يقرر أياً منهما على صواب؟»، سألت ديانا.

«لا يهم أي جواب هو الصحيح، يا ديانا. المهم هو ما تؤمنين به أنت نفسك. اسألي نفسك. قولي، أيهما أؤمن به؟ الأمر بهذه البساطة. إذا جاء جوابك «لا أستطيع سماع الورود»، فلا بأس أيضاً. لا يمكن أحداً لومك على ذلك. يجب وجود أولئك الذين لا يؤمنون من أجل وجود أولئك الذين يؤمنون. النهار موجود لأن ثمة ليلاً، والليل موجود لأن نهاراً يقابله. وبدلاً من السؤال أيهما أكثر جمالاً، أهو النهار أم الليل؟ اسألي نفسك أيهما تعيشين فيه. اسألي نفسك: هل أعتقد أن في إمكاني سماع الورود؟».

«بل عليك أن تطرحي على نفسك هذا السؤال، لأنك إذا تأكّدت من أن الجواب هو لا، فلن تحتاجي عندها أبداً إلى الدخول إلى الحديقة. وستوفّرين على نفسك المصاعب، وخيبات الأمل، والإخفاقات التي ستواجهينها هناك. ولن يكون عليك، بداية، أن تصغي إليّ. لن تحتاجي إلى قضاء أيام، وشهور، وربما سنين، تنتظرين أمام وردة على أمل أن تسمعيها تتحدّث. سيكون كل شيء أكثر سهولة، وأكثر راحة بكثير. فبدلاً من القيام باكراً، للذهاب إلى الحديقة، يمكنك

البقاء في سريرك تنامين المدة التي تشائينها. ماذا تعتقدين، ألن يكون ذلك أكثر إمتاعاً بكثير؟».

توقّفت زينب هانم للحظة قبل أن تضيف «يعتمد هذا، في الواقع، على إن كنتِ تعتقدين أن في وسعك سماع الورود أم لا، وما هو أكثر متعة: النوم؟ أم الاستيقاظ على أمل سماعها تغنّي؟

«هل أنت إذاً، يا ديانا، واحدة ممن يقولون: نعم، يمكنني سماع الورود؟».

انتظرت زينب هانم لبعض الوقت جواب ديانا الذي لم يأت قط.

«عرفتُ ذلك»، قالت زينب هانم. «الجواب الذي أعطيته هو سبب وجودك هنا».

«لكنني لم أعط أي جواب».

«سمعت الجواب الذي أحتاج إلى سماعه. أحياناً، يكون الصمت أكثر إقناعاً من مئة وعد محكي».

بقيت ديانا صامتة.

«يبقى أن الاعتقاد أن الورود تغنّي، ليس كافياً لمعرفة الأغنية التي تنشدها. ثمة طريقتان فقط لمعرفة ما هي الأغنية

الفعلية: إما أن تسمعيها بنفسك، وإما أن تعرفيها من شخص يسمعها.

«بيد أنه أفضل بكثير أن تسمعيها بنفسك. للورود صوت إلهي. تستلّك من ذاتك، تأخذك إلى عالمها وتعيدك، وقد تغلغل فيك عطر الورد. عندها، لن يعود هذا العطر ينبع من الورود بل من داخلك أنتِ، لأنك ستدركين في النهاية معنى أن تكوني مسؤولة عن وردتك».

«تمهّلي»، قالت ديانا. «إنها الجملة ذاتها التي استخدمتها ماريا في رسالتها الوداعية إلى والدها. كتبت أنها تغادر المنزل لأنها أدركت أخيراً معنى أن تكون مسؤولة عن وردة. لا بد من أنها فكّرت في المجيء إليك عندما كتبت تلك الرسالة. لا بد من أن هذا هو سبب مغادرتها المنزل».

«لا أعتقد ذلك»، قالت زينب هانم. «أنا متيقنة من أن ماريا لا تحتاج إلى مغادرة المنزل، حتى من أجل حديقة الورد».

جلست ديانا لبرهة ضائعة في أفكارها، ثم قالت «وصفتك ماريا في رسائلها بأنك شخص يعرف. ثمة أمر أودّ معرفته يا زينب هانم. أمر فوق قدرة الحواس الخمس وطاقتها، لكن لا علاقة له بالورود...».

«يتعلّق ذلك بوالدتك، أليس كذلك؟».

«كيف عرفت؟».

«أرادت ماريا معرفة الأمر ذاته. قومي بما فعلته ماريا. فهي عندما كانت هنا صلّت لله ليمدّها بأخبار عن أمها. فالله يعرف ما حلّ بوالدتك، حتى ولو لم يعرف أحد غيره. اسألي وسيجيبك، فالله يسمعك، حتى لو أنك لا تسمعين».

أظهرت عينا ديانا عدم قناعتها.

«لا يتركنا الله بدون جواب، يا ديانا، وبخاصة لا يترك إنسانة تنتظر بصدق وبشغف خبراً ما عن أمها. لن تسمح عظمة الله لأولئك الذين خلقهم بأن يبقوا غير مطّلعين على أنفسهم، أو على الله ذاته. بعض الناس يعتقدون أن الله أكبر وأرفع شأناً من أن يُقحم نفسه في حياتنا اليومية. لكن على العكس، فهو على هذه الدرجة من الكِبَر والشأن، إلى حدّ أنه يُقحم نفسه حتى في أصغر أمورنا».

أشرقت عينا زينب هانم: «إنه يشغل نفسه بنا، يا ديانا. إنه يفعل، بالطريقة الأفضل. هو يهتم بديانا، بماريا، بزينب. يهتم بكل واحدة منا شخصياً وإفرادياً. إنه معنا على الدوام، لكن علينا نحن أيضاً أن نكون معه لندرك هذا. شعرت ماريا بأن الله دائم العناية بها، لهذا سألته عن والدتها».

«أنا أيضا سألت»، قالت ديانا، «صلّيت لله مرّات كثيرة

جداً من أجل خبر عن أمي. رجوته، لكنني لم أحصل قط على جواب. آسفة، لكن الله يتركنا من دون استجابة».

«كلا، لا يفعل. لكنه قد يرسل الأجوبة بوسائل غير متوقّعة. أحياناً من خلال حلم؛ وأحياناً وردة، وربما عبر والدة أو حتى شحّاذ».

«شحّاذ؟!»

«هل تفوّهت بأمر خاطئ، يا عزيزتي؟».

لم تعرف ديانا ما تقول. أرادت أن تعتقد أن ما قالته زينب هانم ليس إلا مجرّد مصادفة. حاولت إخفاء دهشتها، وأومأت لزينب هانم بالمتابعة.

«ماريا، على غرارك تماماً، لم تسمع خبراً عن والدتها بعدُ، لكنها بالتأكيد ستسمع، ولن تسمع خبر فقدانها أمها، بل أنها لن تفقدها أبداً».

«وكيف يحصل ذلك؟»، سألت ديانا بصوت متكسّر.

«أي شيء قد يحصل بمشيئة الله. فقد شاء الله، لمجرّد أن يرسل خبراً إلى ماريا عن أمها، أن يقع رجل وامرأة في الحب منذ ٢٦ عاماً. تزوجا، ورُزقا بعد سنتين بابنة. وبرغم قول الطبيب، إن الطفلة التي وُلدت قبل موعدها لن تُكتب لها

الحياة، فإنها نجت وترعرعت... وهي، بعد ذلك بسنوات كثيرة، وقد أصبحت امرأة بالغة، التقت في إحدى رحلاتها بستانياً عجوزاً، أبلغها أن في وسعه تعليمها كيفية الاستماع إلى الورود. صدّقته وكرست نفسها، في السنين العشرين التالية، لفن الإنصات إلى الورود. اجتازت في خلال ذلك الوقت مصاعب كثيرة. هجرها زوجها، فقط بسبب جنونها هذا، ونبذها الناس من حولها. ولم يعد أمامها من خيار سوى الابتعاد عن موطنها. وحلّت أخيراً في اسطنبول، حيث اشترت منزلاً ذا حديقة، وأمضت فيه وقتها كلّه مع ورودها. وفي خلال فترة قصيرة، أنبتت البذور التي زرعها البستاني العجوز في قلبها أغصاناً، وأمكنها في النهاية سماع الورود.

«أتعرفين يا ديانا لماذا هذه الأحداث كلها والكثير مما يدور حولها، تحصل؟ ربما، ببساطة، لأن الله يرغب في أن يمكّن ماريا من سماع صوت أمها عبر وردة. لهذا السبب وُلدت زينب، وأُنشئت حديقة، وأزهرت وردة...».

اعتقدت ديانا أن زينب هانم تتكلم ببلاغة، لكن الكلمات أخفقت في مواساتها، لأن ما قالته زينب هانم يستند إلى افتراض أن ماريا تستطيع سماع صوت أمها.

«حسناً»، قالت زينب هانم. «يكفي هذا بالنسبة إلى الرياضيات وكمقدّمة معاً. بُحّ صوتي من الكلام، دعينا نأخذ

استراحة على أن نعود ونلتقي بعد ثلاث وثلاثين دقيقة، أموافقة أنت؟».

«حسناً»، قالت ديانا. «لكن قبل ذلك، لدي سؤال: ما الأغنية التي أنشدتها الورود؟».

«لا يمكنني إخبارك بذلك»، قالت زينب هانم. «لو فعلت، لما جهدتِ لتسمعيها بنفسك».

٣٩

عادا إلى كرسييهما العاليين. قالت زينب هانم «أريدك الآن يا ديانا أن تذهبي إلى سبيل الماء هناك وتغسلي رأسك بعناية، ثم تعودي إلى هنا».

«لكنني غسلت شعري هذا الصباح».

«يمكنني رؤية ذلك يا عزيزتي. والآن، اذهبي واغسلي شعرك».

هزّت ديانا كتفيها، وسارت إلى سبيل الماء. كان الماء بارداً كالثلج، ولم تتمكن من تفادي تبلُّل ثيابها. شعرت، وهي ترتجف من برودة الصباح الباكر، بالسعادة لأنها لم تأت إلى هنا في الشتاء. عصرت الماء من شعرها وسرّحته بأصابعها قبل أن تعود إلى حيث الكرسي ينتظرها مثل تلميذة المدرسة المطيعة.

«أريدك الآن أن تذهبي إلى سبيل الماء هناك، وتغسلي رأسك بعناية، ثم تعودي إلى هنا».

شعرت ديانا لدقيقة كأنها تختبر أمراً سبق لها وعاشته. لم تكن الكلمات هي وحدها التي تم تردادها، بل إن التعبير على وجه زينب هانم كان ذاته. تسمّرت ديانا في مقعدها لدقيقة من دون أن تتفوّه بكلمة.

وعادت، لعدم قدرتها على مواجهة نظرة زينب خانم الحادجة، إلى السبيل وغسلت رأسها من جديد. وخشيت، وهي عائدة إلى الكرسي، أن تطلب منها زينب هانم القيام بالأمر ذاته مجدّداً.

«ها أنت»، قالت زينب هانم. «الآن، وقد تم ذلك، يمكننا البدء. آه، قبل أن أنسى، إذا سارت هذه الأمثولة جيداً، فلدي مفاجأة لك في الأمثولة التالية».

«أي نوع من المفاجأة؟».

«ألم أقل إنها مفاجأة؟».

«فهمت... بالمناسبة، أيحق لي طرح الأسئلة في الحديقة؟».

«بالتأكيد يحق لك. لكن عليّ أن أقول لك إنك لا تحتاجين إلى فهم سبب كل ما سنفعله في الحديقة لتحقيق هدفك. وإذا لم تنسي ما ستختبرينه هنا، فإنك ستحصلين، عاجلاً أم آجلاً، على الأجوبة عن أسئلتك.

«ستكونين، في خلال وقتنا في الحديقة، التلميذة والأستاذة معاً. وقد سبق لك أن امتلكت الأجوبة. بل امتلكت أيضاً، كما قلت لك سابقاً، القدرة على سماع الورود. أنا هنا، وحسب، لأذكّرك بأمور نسيتها. سماع الورود سهل، وسهل جداً. كل ما عليك القيام به هو إما استذكار ما قد نسيته، وإما نسيان كل ما تم تعليمك إياه».

«لكنني لا أزال أريد أن أعرف لماذا على شعري أن يكون مبتلاً!».

«كل سؤال في الحديقة أشبه بالبذرة يا ديانا. وهي تنبت لها، مع الوقت، جذور، وساق، وفي النهاية تزهر. ما يمكنني تأكيده لك هو أنك لن تنسي أبداً، ما بقي من حياتك، هذا الصباح البارد الذي اضطررت فيه إلى غسل شعرك وهو نظيف مرتين. فالأمر الذي يتم عيشه ليس أبداً كالأمر غير المعيش. وكونك «عشته» سيعطيك، عاجلاً أم آجلاً، الجواب الذي تبحثين عنه. لكن، دعيني هذه المرة أُجبك عن سؤالك: أردتك أن تغسلي رأسك، لأن هذا الرأس يخص ديانا».

«لكنني ديانا!».

«ألم نتفق على محو سيرة الحياة؟».

«حسناً، ولماذا اضطررت إلى غسله مرّة ثانية إذاً؟».

«تحرّرت في المرة الأولى من تسريحة شعر ديانا. لكن الذهن الذي أعطى الشعر شكله كان لا يزال موجوداً».

«آه، توقفت، من خلال غسله مرّة ثانية، عن التفكير مثل ديانا. أليس كذلك؟». سألت وأتبعت سؤالها بابتسامة متشككة: «لا أقصد الحكم على الأمور، لكن ذلك كلّه يبدو كثير الشكلية».

«أنت محقّة؛ لا يمكنك تطهير ذهنك بماء السبيل. لكنه رمز. وهو صامت الآن. لكن إذا لم تغفليه، فسيتحدّث إليك في يوم من الأيام. إنه طبعة موضوعة في قلبك، قد لا تكون ظاهرة الآن، لكنها ستظهر عندما يحين الوقت المناسب».

«ومتى هو الوقت المناسب؟».

«ربما في اليوم الذي تدركين فيه أخيراً أنه لن يعود في إمكان الأمور التي تعرفينها مساعدتك. أو ربما عندما تدركين أن الوعي أشبه بالسلّم، وأنه لا ينبغي أن تعودي أدراجك إذا أردت أن تتسلّقي إلى ما هو أعلى».

امتنعت ديانا، المتشوقة إلى رؤية الحديقة، عن طرح المزيد من الأسئلة.

٣٠

ارتطم رأس ديانا بالباب، برغم أنها حاولت تجنُّبه. لكن وُجدت حقيقة في الجانب الآخر.

غطّى سحاب رقيق، ذو لون لؤلؤي زهري تحت ضوء الصباح الباكر، كل شيء. أضفى على الحديقة مظهراً غامضاً، برغم أنه لم يستطع إخفاء ألوانه الشبيهة بقوس القزح. سارت، في طريق ملتوية مؤلفة من بلاطات سداسية الشكل عبر الورود التي جعلها النسيم الخفيف تتمايل في شكل متزامن مع البلابل التي تطير من فوقها. وحدها زقزقات العصافير، وهمسة الماء الرقيقة في البركة الرخامية، كسرت الصمت.

وقفت ديانا لبرهة وعيناها شبه مغمضتين، تتنشق العطر المنتشر في الجو. وشعرت، مع كل نسمة، بأنها تنجرّ وتصبح أكثر اقتراباً من مكان سماوي ما. لكنها عادت إلى أرض الواقع عندما نزعت زينب هانم حذاءها وأخذت تدعك قدميها الحافيتين بالتراب.

«تعالي، يا عزيزتي»، قالت زينب هانم، و«افعلي مثلي».

وبالطريقة ذاتها التي تصرفت بها عندما كان عليها الذهاب إلى السبيل، خلعت ديانا حذاءها وفعلت ما طُلب منها.

«أعرف أن سؤالي الآن لن يُحدث أي فرق، إلا أنني لا أزال أريد أن أعرف لماذا ينبغي أن تتسخ قدماي الآن».

«الورود تحذر دوماً من أن يُنسيها جمال الهدية الشخص الذي أهدى».

«طبعاً!»، قالت ديانا «لماذا لم أفكّر في ذلك؟!».

«لا تنسى الورود أبداً، ولو للحظة، أن وجودها وجمالها هما عطيّتان من التراب. وهي تدرك تمام الأدراك أنه حين يحين وقتها، ستذبل وتسقط في التراب بذوراً، وأن التراب سيقبل فقط بذور الورود التي لم تنس من أين جاءت. عندما نلمس التراب بأقدامنا الحافية، نُظهر للورود أننا نحن أيضاً لم ننس التراب. الورود تقدّر هذا».

عادت زينب هانم وارتدت خفّيها.

«كل ما تحدّثنا عنه حتى الآن هو تحضير لرحلتنا في سماع الورود. وقد تعلّق الأمر كلّه، حتى الآن، بنا نحن المتوخيتين. لكن على المتوخي أن يكف عن الوجود في الحديقة، ويصبح مأخوذاً كلّياً بالورود. يجب أن نعطيها كل

ما لدينا: ذهننا، قلبنا، روحنا، كل شيء. فلنبدأ، يا ديانا، إذا كنت جاهزة».

هزت ديانا برأسها علامة الموافقة.

«حسناً إذاً... ما الذي نعرفه عن الورود؟»، سألت زينب هانم.

«لا شيء، من الطريقة التي ترينها، لا شيء على الإطلاق».

«ممتاز. هذه دائماً البداية الأفضل. وهكذا يمكنني الآن إطلاعك على القاعدة الذهبية لسماع الورود».

«القاعدة الذهبية؟».

داعبت زينب هانم برفق فليجات الوردة البرتقالية إلى يسارها قبل أن تواصل: «لا يستطيع المرء أن يتعلّم عن الوردة إلا من الوردة. هذه هي الطريقة الوحيدة لمعرفتها الحقّة».

شرعتا في السير صوب وسط الحديقة. بعد فترة، توقّفت زينب هانم بطريقة فجائية وانحنت صوب وردة صفراء قبالتها. «ما الأمر أيتها الوردة الصفراء؟ لم أشاهدك قط تبكين من قبل. لماذا تنتحبين في حديقة السعادة؟».

أخذت ديانا تراقب زينب هانم عن كثب. لم تنبس الورود

بأي صوت، لكن بدا أن زينب هانم تستمع إليها بإمعان، وتهزّ رأسها من وقت إلى آخر كما لو أنها موافقة.

قالت للوردة «آسفة جداً. لم تكن لدي أي فكرة أيتها الوردة الصفراء. أحب، لو وافقت ضيفتنا، أن أسمع قصتك من بدايتها».

استدارت زينب هانم صوب ديانا. «الزهرة الصفراء حزينة جداً اليوم. هل تمانعين البقاء لبعض الوقت والاستماع إلى ما عليها قوله؟».

«ماذا تعنين؟ تعلمين بأنني لا أستطيع سماعها».

«سأنقل إليك ما تقوله الوردة الصفراء، وهي تروي لي حكايتها».

«حسناً، أشعر ببعض الغرابة، لكن لا بأس».

جلست ديانا إلى حيث أشارت زينب هانم على الأرض، وطوت ساقيها من تحتها. ما هم لو أن سروالها الأبيض اتسخ، إذا أمكنها، بجلوسها هنا، توفير بعض المواساة العاطفية لوردة!

استدارت زينب هانم صوب الوردة: «إنها ديانا، توأم ماريا».

«سعدت بمعرفتك، يا ديانا»، قالت الوردة الصفراء وهي تتحدث عبر زينب هانم. «لظننت أنها ماريا بنفسها، لولا أن البلبل أخبرني العكس».

«سُررت بمعرفتك أيضاً»، قالت ديانا كما لو أنها تحادث نفسها.

«حسناً، أيتها الوردة الصفراء». قالت زينب هانم، «أخبرينا عمّا يحزنك إلى هذا الحد».

«آسفة كثيراً»، قالت الوردة الصفراء، «أعلم بأنك تعوّدت أن تري الورود سعيدة في هذه الحديقة، لكن اليوم هو ذكرى النهار الذي فقدت فيه صديقتي فينوس أريجها. وأنا أصبح على هذه الحال مرّة في السنة، سامحيني...».

«لا شيء أسامحك عليه، أيتها الزهرة الصفراء»، قالت زينب هانم. «تعبّر السعادة عن نفسها أحياناً من خلال الدموع التي تُسكب من أجل صديقة... لكن، أخبرينا كيف حصل هذا؟ فأنا لم أكن لأعتقد أن صديقة لك يمكن أن تخسر أريجها».

قالت الوردة الصفراء «دعيني إذاً أبدأ بإخبارك عن أول وردة ذات أريج، تلك التي تحدّر نوعنا منها، بما أن هذا مرتبط على نحو وثيق بالمأساة التي عاشتها فينوس...

«رغب سلطان مملكتنا، في يوم من الأيام، في خلق وردة تحمل أريجها الخاص المميز. رشّ تربة هذه الحديقة بعطر ملوكي، ثم سقى الحديقة بإكسير الحياة، بحيث إن وردته لن تذبل أبداً. وعندما أزهرت في النهاية أسماها وردة العدم. تعمَّد سلطاننا اختيار هذا الاسم، بحيث إن الوردة لن تنسى أبداً أنها لا تملك أريجاً مستقلاً عن عطر السلطان، لأن الوردة، من حيث جئت لا تكون وردة إلا بفضل أريجها.

«عند مضي بعض الوقت، أراد السلطان لشعبه كلّه أن يعرف عطره، فسمح بزرع الوردة خارج الحدائق الملكية. ستذبل وردته في أحد الأيام، لأنها لم تعد تُروى بإكسير الحياة. لكن، مع الوقت، ستحمل ذرّيتها عطر السلطان إلى كل زاوية من زوايا المملكة.

«كنا، أنا وفينوس، كلتانا من ذرّيتها، وقد زُرعنا في ساحة صغيرة في إحدى القرى. أزهرنا بهدف واحد، وهو أن يعرف الجميع عطر السلطان، ورغبنا بالتالي في أن نُحب فقط من أجل العطر الملوكي الذي نحمله.

«وُجد نوعان من الناس المقيمين في قريتنا: أولئك الذين مثل ماريا، والآخرون. أمثال ماريا هم الذين يعرفون أننا نحمل عطر السلطان؛ وبالتالي اهتموا بأريجنا أكثر من أي

شيء آخر. أما الآخرون، فعلى عكسهم، أعطوا الأهمية فقط للوننا، وسوقنا، وأوراقنا، ولكل ما تراه العين...

«في أحد الأيام، بلغ القرية بائع يبيع وروداً اصطناعية: وروداً مزيّفة، لا حياة فيها ولا أريج... لم نكن لنتصوّر أن أحداً ما سيهتم بها. لكنه، في غضون وقت قصير، أخذ الآخرون في الهمس: لدى هذا البائع ورود جميلة. فليجاتها من قماش حريري، وألوانها لا تخبو أبداً، وسوقها خالية من الأشواك.

«قبل مضي وقت طويل، باع الكثير من الورود، وسرعان ما تحوّلت قريتنا إلى موطن الورود الاصطناعية. لم يستطع أمثال ماريا تحمّل هذا، وغادروا القرية على نحو تدريجي. وفي النهاية، بقينا أنا وفينوس مع أمرين: الحاجة إلى من يحبّنا، والآخرين.

«لم نستطع، في ذلك الوقت، توقّع الكارثة التي سيوصلنا إليها هذا الوضع. ما إن غادر أمثال ماريا جميعهم، حتى أخذنا في التحوّل، رويداً رويداً، إلى ما يقدّره الآخرون على أمل اكتساب حبّهم. ولأنهم لم يقدّروا سوى ملامحنا الخارجية، أصبحنا أكثر فأكثر اهتماماً بمظهرنا. جاهدنا للوقوف منتصبات مثل الورود الاصطناعية، وحاولنا إطالة المدّة التي نحتفظ فيها بفليجاتنا. بل إننا لم ننتحب في خلال

الأوقات العاطفية حتى لا تتجعّد فليجاتنا. وسرعان ما أخذ أريجنا يخبو بسبب الإهمال في المحافظة عليه.

«سوّينا أنفسنا لتحقيق توقّعات الآخرين، متلبّسات الشكل تلو الآخر. أعددنا صباغ ألواننا، الصبغة تلو الأخرى. قال الآخرون، ليكن نموكن أكثر ارتفاعاً، فنمونا بارتفاع أكثر. قالوا، وجّهن أنفسكن في هذا الاتجاه أو ذاك، فقمنا بذلك باستعجال صامت. أخذوا في البداية يعطوننا الأشكال التي يحبّونها، ويُمطروننا من ثم بالمدائح.

لكننا شعرنا، في أعماق أنفسنا، بأننا غير محبوبات. وحدهم الذين يهتمّون بأريجنا يحبوننا، لأن ما يجعل الوردة وردة هو أريجها. وما الشعور الذي يكنه الآخرون لنا سوى إعجاب في أفضل الحالات.

«وعيت ذلك كلّه، لكن فينوس تصرّفت كما لو أنها لا تعي الموقف. حاولت تحذيرها. قلت لها إن الآخرين أشبه بدودة غير مرئية عثرت على سرير فرحنا القرمزي، وهي آخذة في تدمير حياتنا. نصحتها بالهروب فوراً من هنا إلى مكان يعيش فيه أمثال ماريا، لكنها لم تبال بكلامي. أنت لست طبيعية، قالت. ولم يمكنني لومها لقولها ذلك. فهي محقّة، فقد وجد الكثير من الورود الاصطناعية في قريتنا، بحيث إن الوردة التي لا أريج لها أصبحت هي المعيار.

«كنت لا أزال أحاول إقناعها، عندما ظهرت جماعة من النمل إلى جانبنا، وتجمّعت على الأرض لتشكيل هذه الكلمات: خالفن الآخرين. تطلّعت فينوس إلى هذه الكائنات بازدراء، وتمتمت «يا للنمل الملعون، إنه يعمّ المكان».

أدركت في النهاية أنني لن أتمكن من إنقاذ فينوس، فقررت أن أهتم بنفسي على الأقل. عليّ مغادرة القرية في أسرع وقت، لكنني لم أملك أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك. وكما تعرفين، ليست للورود أقدام. وهكذا أخذت أنتظر مجيء أحد ما ليقتلعني ويأخذني بعيداً.

«جاؤوا في النهاية: رجل ضخم، وولد نحيف، وحمار رمادي. وبرغم أن الرجل والولد بدوَا منهكَين كثيراً، فإنهما لم يركبا على الحمار، بل سارا إلى جانبه. بدا الأمر غريباً جداً بحيث إنه لم يمكنني تفسيره.

استلقيا، لحسن الحظ، على الأرض قرب شجرة مجاورة. التفت الصبي إلى والده، وقال: «أبي أنا منهك جداً، وقد كدنا نموت على الطريق. ما الخطأ الذي ارتكبناه؟

«أقفل فمك»، قال الوالد، وصفعه على أذنه. السفر سيراً على الأقدام، هو دائماً على هذا النحو.

- لكننا نملك حماراً يا والدي، وهو حمار قوي أيضاً.

اصمت، قلت لك! ألم تسمع ما قال الناس عندما ركبنا معاً على الحمار؟ ألم يقولوا، انظروا إلى هذين القاسيين اللذين لا رحمة فيهما، يركبان على حمار واحد مسكين! والله أعلم ماذا سيفكّر الآخرون في القرية فيّ إذا سمعوا بهذا.

نعم، عندها قلت لي إن عليّ النزول. لكنك، يا والدي، كنت مرتاحاً على الأقل.

لكنني سمعت عندها شخصاً آخر يقول: انظروا إلى هذا الرجل القاسي القلب! يركب على الحمار كالملك وابنه المسكين بالكاد يمكنه السير. أعرف هذا الرجل. إنه ثرثار حقيقي. يعلم الله ما الذي سيظنه الآخرون في القرية بي، إذا سمعوا بهذا.

نزلتَ عن الحمار عند هذا الحد، وأصعدتني إلى ظهره بدلاً منك. وأنا كنتُ مرتاحاً على الأقل.

لكن، بعد ذلك؟ ما الذي قاله الناس؟ انظروا إلى هذا الولد السفيه، يجلس هناك على الحمار، ووالده المسكين يجرّ نفسه جرّاً. لن أقبل أن يقول أحد إن ولداً من أولادي لا يحترم والده. يعلم الله ما الذي سيظنه الآخرون في القرية بي إذا سمعوا بهذا.

ـ لكن، يا والدي! أصبح كلانا يسير!

ـ اهدأ أيها الولد الأحمق. على الأقل لن يتمكن أحد من تناولنا بالسوء الآن.

«عند هذا الحد، التفت رجل في الجوار إلى صديقه قائلاً: «انظر إلى هذين الأحمقين! يملكان حماراً، لكنهما سارا الدرب كله إلى القرية على الأقدام!

«احمرّ وجه الوالد بسماعه هذا، حتى جذور شعره. كان الفتى يبتسم. بدا أنه أدرك ما لم يدركه والده، فالأولاد يفهمون بالتأكيد.

«ولجذب انتباه الصبي»، تابعت الوردة الصفراء، «استخدمت كل قوّتي لإطلاق ما بقي من أريجي. وما إن بلغ العطر الملوكي الفتى حتى استدار نحوي، لأن الأولاد دوماً يحبون عطر السلطان.

«عندما حلّ الظلام، اقتلعني برفق، ووضعني على ظهر الحمار.

«حدثتني فينوس في المرة قبل الأخيرة على الرحيل». أيتها الزهرة الصفراء، قالت. «تقولين إنك تغادرين للحفاظ على أريجك، لكنني أرى أنه خبا كلّياً منذ زمن بعيد». كرجت دمعة على فليجاتي في اللحظة التي قالت فيها ذلك، إذ أدركت أن فينوس قد فقدت أريجها كلّياً، لأن الوردة هي مرآة

وردة أخرى. عندما تنظر الواحدة إلى الأخرى، فهي إما أن ترى فيها أريجها الخاص، وإما غياب هذا الأريج.

«عندما لاحظني والد الفتى في الصباح التالي، حذّره من عدم تحميل الحمار بأمور لا طائل منها. وأخذني عندها إلى السوق وباعني. وبعدما سافرت في أيدي كثيرين، جاء بي أخيراً أحد محبّي الورود إلى حديقتك. وأنا سعيدة جداً هنا، لكن لا يسعني الامتناع عن تذكّر فينوس في كل مرّة تأتي ذكرى فراقنا».

حلّ صمت قصير.

«إذا انتهت الوردة الصفراء من رواية قصتها»، قالت ديانا، «فثمة سؤال أود أن أطرحه عليها».

«هيّا، يا عزيزتي»، قالت زينب هانم.

«أيتها الوردة الصفراء، لا بد من أن وجود الورود الاصطناعية يزعج الورود الحقيقية مثلك، أليس كذلك؟».

«ولماذا ننزعج؟»، قالت الوردة الصفراء. «لا توجد الورود الاصطناعية إلا لأن ثمة وروداً حقيقية موجودة. فوجودها لا يفعل سوى إبراز قيمتنا. فمن الذي يقلّد أمراً غير ذي قيمة؟».

هزّت ديانا برأسها موافقة.

استدارت صوب زينب هانم وقالت، «أود أن أسألك شيئاً: عندما تحدّثت الوردة الصفراء عن الوالد والصبي، بدا لي كأنها قصة سمعتها من قبل. وإذا لم أكن مخطئة، فإن والدتي قد تكون قصّت عليّ رواية مماثلة منذ زمن بعيد. فهل هذا ممكن؟».

«ولمَ لا؟»، قالت زينب هانم. «التجربة التي كانت للوردة الصفراء مع الوالد والفتى معروفة هنا برواية ناصر الدين جحا. إلا أن جحا خاصتنا لا يشبه أبداً والد الفتى الذي التقت به الوردة الصفراء. فجحا أكثر لطفاً ووداً».

صعب الأمر على ديانا، فنظرت إلى زينب هانم كما لو أنها تنتظر تفسيراً ما.

«لماذا أنت متفاجئة يا عزيزتي؟ فناصر الدين جحا كان بستانياً أيضاً. ومن الطبيعي أنه استوحى رواياته من الورود».

نهضت زينب هانم، «هذا كل شيء بالنسبة إلى اليوم، يا ديانا. غداً تبدأ الأمثولة عند الخامسة و٥٧ دقيقة صباحاً».

٣١

أفاقت ديانا باكراً من جديد في الصباح التالي، وهي لا تزال تشعر بالنعاس. فقد أبقاها التفكير في درسها الأول صاحية حتى ساعة متأخرة جداً. ضج ذهنها بالأفكار حول زينب هانم، والحديقة، وقصة الوردة الصفراء، ورياضيات سماع الورود...

شعرت ديانا بأن هذه الأفكار قد غمرتها بعض الشيء. إلا أنها واست نفسها، في الوقت ذاته، بالمعادلة التي تعلّمتها في رياضيات سماع الورود.

تُطبَّق هذه المعادلة على أي مسألة ذات عدد لا يُحصى من الأجوبة الممكنة، والتي لا يمكن الإجابة عنها اعتماداً على الحواس الخمس. وبالتالي، فإن الجواب عن السؤال عما حلّ بوالدتها، يمكن أن يكون صحيحاً بالقدر ذاته الذي تكون فيه صحيحة الإجابة عن «ما الأغنية التي تنشدها الورود؟». وهكذا، فإن حظوظها في معرفة ما حلّ بوالدتها هي صفر، أو

على الأقل «صفر خاص». وليس صحيحاً بالتالي، أن تقرر أن والدتها لم تعد موجودة. لقد سعدت لأن درسها الأول ساعدها على الأقل على إدراك هذا.

ارتدت قميصاً أحمر وسروال جينز، وهرعت لتكون جاهزة في الوقت المحدد لدرسها الثاني. وليس عليها اليوم، على الأقل، أن تحمل همّ شعرها.

هرولت نزولاً على الدرج، مدركة أنها أخذت تتأخر، لتكون عند كرسيها العالي عند الخامسة و٥٧ دقيقة. وببلوغها، رأت أن زينب هانم قد وصلت بالفعل.

«صباح الخير يا ديانا. أيمكنني أن أسألك عن الوقت؟».

ارتاحت ديانا لرؤية أن عقرب ساعتها تجاوز الموعد بدقيقة واحدة فقط.

«آه، صباح الخير. إنها الخامسة و٥٨».

«اعتقدت ذلك. انتهت أمثولتنا لليوم».

لا بدّ من أنها تمازحني!

«سامحيني»، قالت ديانا. «لقد سبق أن حذّرتني. أعرف أنه لم يكن عليّ أن أتأخر، وليس حتى دقيقة واحدة، لكن...».

«ليس ثمة ما يستوجب المسامحة، يا عزيزتي، فأنا أعرف

بالفعل كيف أسمع الورود. هذا الوقت مخصص لك. سنرجئ الدرس حتى مساء يوم غد الساعة السادسة و١٩ دقيقة».

«لا أحسبك جادة!».

لم تجب زينب هانم.

«لا يمكنني تصديق هذا. أفقت عند الخامسة والنصف، لم أفعل شيئاً بشعري كما رغبتِ تماماً، وجهزّت نفسي بسرعة البرق، وهرعت نازلة إلى هنا. وأنت حرّة في تصديق أنني أتطلع شوقاً إلى الأمثولة. وها أنت تقولين لي إنه تم الإلغاء لأنني تأخرت دقيقة واحدة».

أخذت زينب هانم ديانا بيدها بلطف، وعبرت وإياها أطراف الحديقة بأكملها، وهي تسحبها برفق بيدها. «انظري إلى دزينات شجيرات الورود المشرئبة بأعناقها يا ديانا، ومئات الورود والبراعم. أريج الورد في كل مكان، أكثر من الهواء نفسه... أوَليس هذا بمنظر رائع؟».

«أوافقك من كل قلبي، لكنني لا أفهم تماماً ما الذي تحاولين أن...».

«يمكن رشّ البذار أن يستغرق دقيقة فتنتج عنه حديقة. ولا بد من أنك تعرفين أنه حتى أطول أحلامنا يستغرق أقل من دقيقة. ربما، تحاول أن تقول لنا إنه ليس علينا أن نصرف حياة

بأكملها لتحقيق أحلامنا. إلا أن ما تقوله لنا بالتأكيد هو القوة التي تملكها كل دقيقة. لن يمكنك أبداً استعادة دقيقة تفوّتينها. من يدري، ربما هذه الدقيقة التي تربط بين ٥,٥٦ و٥,٥٨ في الحادي والعشرين من أيار/مايو، كانت هي الدقيقة بالضبط التي ستسمعين فيها وردة».

عادت ديانا إلى غرفتها، وهي تفكّر في احتمال عدم تأجيل الأمثولة في النهاية.

٣٢

لم يُضجر ديانا إجبارها على الاعتكاف ليوم ونصف اليوم في المضافة؛ فقد انشغل ذهنها بتوأمها. لقد أبلغت ماريا زينب هانم أنها يجب أن تصل في غضون هذا الأسبوع، وبالتالي ستلتقي بها ديانا قريباً جداً، ربما اليوم أو غداً، أو في غضون بضعة أيام على الأكثر.

أجبر الوقت الذي أمضته في الحديقة، والأمور التي قالتها الوردة الصفراء، ديانا على التفكير بعمق في شأنها وفي شأن ماريا. وقد جعل هذا من لقائها مع توأمها أكثر صعوبة بدلاً من أن يكون حلماً طالما تمنت تحقيقه. لكنها، برغم ذلك، لم تكن تصبر على لقاء ماريا.

وصلت زينب هانم كالعادة على الوقت.

«كيف حالك هذا المساء يا عزيزتي؟ يمكننا الولوج مباشرة إلى الحديقة، فلا بد من أنك شديدة الرغبة في معرفة ما هي المفاجأة التي وعدتك بها في درسنا الأول».

سارتا بعض الوقت داخل الحديقة، لكن زينب هانم توقفت فجأة أمام وردة ذات لون درّاقي: «آه، لا، ليست هي».

وبعدما قطعتا بضع خطوات بعيداً عن الوردة، استدارت صوب ديانا: «أرادت أن تعرف إذا كنتِ ماريا».

«يبدو أن كل شيء في هذه الحديقة يدور حول ماريا»، قالت ديانا. «أردت أن أسألك بالأمس عندما كنا مع الوردة الصفراء، لكنني سهوت. كيف يمكن هذه الورود معرفة شخص جاء إلى حديقتك منذ سنوات طويلة؟».

«برغم أن زهرة الورد تدوم بضعة أسابيع فقط على أبعد تقدير، فإن الكثير من أشجار الورد التي ترينها في هذه الحديقة، كانت هنا عندما جاءت ماريا. تركت انطباعاً قوياً جداً لديها إلى حد أنها كلها قالت إن ماريا أشبه بالماء. وأن يوصف شخص ما، بلغة الورود، بأنه كـ «الماء»، لهو أكبر مديح يمكن أن تقدّمه وردة. فالورود هي أيضاً كالماء؛ داخلها مثل خارجها. وهي تتوقع الأمر ذاته منّا. وقد شعرت الورود بأن في وسع ماريا أن تفي بكل التوقعات، في كل شيء.

«أرادت مني أن أقول لماريا كم أنها شخص فريد. وعندما قلت لها هذا، أصيبت بالاحمرار الشديد. وردّت بأنه إذا كان

من أمر فريد في ما يتعلّق بي، فهو فقط بسبب حبي للورود».
سرّها كثيراً أن ماريا حدّدت قيمتها الذاتية فقط بالحب الذي تكنّه للورود، إلى درجة أنها رغبت في أن تُسمعها صوتها. لكن ذلك كان مستحيلاً في حينها. كان على ماريا أن تبلغ أولاً درجة ما من النضج.

«تأكدت الورود باليقين، من أنها ستعود إلى الحديقة لسماع شقيقاتها التي ستزهر بعد أجيال منها. عقدت اجتماعاً وتوصلت إلى إجماع على أن تقوم كل وردة، قبل أن تذبل، بتمرير ما تعرفه عن ماريا إلى براعم الورود الفتية التي ستزهر من بعدها. وستمرر هذه البراعم، بدورها، المعلومة إلى الجيل الذي يليها، وسوف ينقلها بدوره إلى الجيل التالي... وهكذا دواليك. وبالتالي، سوف يتم بهذه الطريقة تمرير كل خصائص ماريا من زهرة إلى شقيقتها على مدى سنوات كثيرة. ومنذ ذلك اليوم أخذت كل وردة تزهر في هذه الحديقة تأمل أن تكون من ضمن «الجيل المحظوظ» من الورود التي ستتحدث إلى ماريا.

«وزيادة على ذلك، فقد تم اتخاذ قرار مهم آخر في هذا الاجتماع: سيكون من الممكن لماريا أن تسمع الوردة التي تدعى سقراط».

«سقراط؟».

«إنه الوردة الأثمن في الحديقة، والمرحلة الأخيرة في فن الاستماع إلى الورود. وهو يتحدّث فقط بالقصائد. لم تقابل ماريا سقراط عندما كانت هنا؛ لم تكن مستعدّة له بعدُ. إلا أن ورود هذه الحديقة تعيش، منذ ذلك الحين، على أمل الاجتماع الشهير بين سقراط وماريا».

شعرت ديانا كأنها تستمع إلى نوع من أنواع قصص الساحرات. تداخل الحقيقي والخيالي في ذهنها إلى درجة أنها لم تعد تعرف بماذا تفكّر أو تشعر. إلا أنها تعلم الآن على الأقل من هو سقراط الذي تحدّث عنه ماريا في رسالتها الثالثة.

جالت ديانا بعينيها في حديقة الورد بحثاً عن وردة بارزة، إلا أنها لم تتمكن من رؤية أي وردة أكثر جمالاً، أو مختلفة عن الأخريات.

«أيمكننا رؤية سقراط؟» سألت ديانا.

«يمكنك بالتأكيد، إذا أردت فعلاً رؤيته. وهذه كانت في الواقع مفاجأتي لك. اتبعيني».

كادتا، بعد بضع دقائق، تبلغان نهاية الحديقة تاركتين أشجار الورد الأبعد وراءهما. توقّفت زينب هانم لدى وصولهما إلى بقعة تراب مساحتها حوالى المتر المربع.

«ها نحن»، قالت لديانا.

كاد كل شبر من الحديقة يكون مزروعاً على نحو كثيف بأشجار الورد، إلا هذه البقعة! انتظرت ديانا صامتة، في حين وقفت زينب هانم هناك لا تؤتي حراكاً.

لم تعد ديانا تتمكن من ضبط نفسها، وانفجرت بعد فترة: «لماذا نقف هكذا؟ اعتقدت أننا ذاهبتان لرؤية سقراط».

«نحن إلى جانبه تماماً. فسقراط يقف أمامك بكل مجده!».

«أنت تمزحين، أليس كذلك؟ أرجوك قولي إنك تمزحين».

كوّرت زينب هانم يدها في الهواء، كما لو أنها تحمل بها زهرة ورد. «انظري وحسب إلى جمال هذه الوردة».

إلا أنها ما كادت تقول هذا حتى هزّت رأسها بأسف: «أنا آسفة يا ديانا. ما كان علي أن أشير إلى جمال شيء لا تستطيعين رؤيته».

حدّقت إليها ديانا بدهشة، فسألتها زينب هانم، «أنت لا تؤمنين حقيقة بأن سقراط يقف أمامك مباشرة، أليس كذلك؟».

«في الحقيقة، يصعب عليّ تصديق ذلك».

«دعيني، في هذه الحال، أسألك هذا وحسب»، قالت زينب هانم. «لماذا تمكن الآخرون، طوال سنوات، من جعلك تعتقدين أن من غير الممكن الاستماع إلى وردة، ولا يمكنني أن أجعلك تعتقدين، ولو للحظة، أنك لا تستطيعين رؤية وردة؟».

ومن دون ان تنتظر جواباً، أشارت إلى البقعة الفارغة. «كان سقراط مزروعاً منذ أسبوع في هذا المكان بالذات. أردت أن أقدّمه هديّة إلى ماريا، لذا أرسلته إلى صديق لي، وهو خبير مشاتل، لإجراء التحضيرات الضرورية».

«آه، أرى ذلك»، قالت ديانا. «احتجت حقيقة إلى تفسير. يا لها من مفاجأة! لقد أوشكت على الفرار من هنا».

«أنا مدينة لك باعتذار، يا عزيزتي»، قالت زينب هانم. «لا يوجد أمر يدعى الكذبة البيضاء... الكذبة كذبة. لكن إذا ساعدتنا كذبة ما على إدراك واحدة أكبر، لنقل على سبيل المثال كذبة أنه لا يمكننا سماع الورود، فأعتقد أن من الممكن المسامحة عليها. لكنني أتمسّك بتقديم اعتذاراتي، وآمل أن تغفري لي من أجل نيتي».

ابتسمت ديانا: «لا بأس».

عندما بلغنا الباب، قالت زينب هانم، «لماذا لا نؤجّل

درس الغد إلى الساعة ٣,٣١. لكن انتظريني في غرفتك حوالى التاسعة والنصف من صباح غد. ربما نقوم برحلة مائية على طول البوسفور، فما رأيك؟».

«آه، سيكون ذلك رائعاً».

٣٣

عادت ديانا من جولة رائعة على البوسفور، ومضت إلى غرفتها لتأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يحين موعد درسها. لقد بقي اليوم الذي أمضته حياً في ذهنها.

أخذت زينب هانم ديانا من غرفتها صباحاً، ودارت بها بالسيارة إلى حي صغير على الشاطئ يدعى أورتاكوي. وقامتا، بعد تناول الشازلي كباب في مطعم صغير، بالصعود إلى متن زورق خاص، انطلق من الرصيف المواجه للمسجد المبني بالحجارة المزينة.

أبحرتا في مياه البوسفور الهادئة الزرقاء على طول الشاطئ الأوروبي إلى أن بلغتا قلعة روملي. ثم عبر الزورق إلى الجهة الآسيوية، وشق طريقه مع التيار صوب بحر مرمرة. وعند مدخل البحر تناولتا الغداء في جزيرة صغيرة يرتفع فيها برج العذراء، الذي لم يُفتح إلا مؤخراً أمام الزوار السياح بعد إقفال استمر لقرون. اعتقدت ديانا أن الكباب كاف كغداء

لإشباعها، إلا أنها لم تستطع مقاومة الأطباق التركية الشهيّة التي تم تقديمها الواحد تلو الآخر.

منعت زينب هانم أي حديث عن موضوع الورود أو ماريا إلى أن يحين موعد الدرس. وقد تضاحكتا، بدلاً من ذلك، كثيراً، بل إنهما خاضتا سباقاً في رواية النكات.

فكّرت ديانا في أن زينب هانم اعتنت كثيراً في جعل هذا اليوم لا يُنتسى. وشعرت بأنه يجري تدليلها كثيراً إلى درجة أنها لم تستطع منع نفسها من التساؤل إذا كانت زينب هانم قد خلطت مرّة أخرى بينها وبين ماريا.

تساءلت وهي تنزل إلى الحديقة من أجل الأمثولة، إذا كانت الضحكة التي لم تفارق وجه زينب هانم طول النهار، ستُستبدل بتعبير يتماشى مع جدّية فن الاستماع إلى الورود.

سمعت، في الدقيقة المعينة بالتحديد، صوت زينب هانم: «لنمض مباشرة إلى الحديقة، يا عزيزتي. تعالي، دعينا لا نضيّع الوقت».

تبعت ديانا زينب هانم وهي تخطو بخطوات واسعة على طول مسار الحديقة. لاحظت ديانا، عندما بلغتا وسط الحديقة، إلى جانب المسار، فخّاراً كبيراً لم يسبق أن رأته من قبل. كان فيه وردتان منفصلتان، ساقاهما ملتفّتان كالورود المعربشة. إحداهما حمراء والأخرى بيضاء.

انتصبت الوردة الحمراء شامخة، بينما واجهت البيضاء الأرض. وقد تداخلت ساقاهما وأوراقهما إلى حد قد يعتقد المرء أنه لا يوجد في الفخّار سوى وردة واحدة ذات لونين مختلفين.

«أهو سقراط؟»، سألت ديانا.

«كلا، اسمها مكتوب على الفخار».

انحنت ديانا لتقرأ الاسم، وقد كُتب «أفسس» بحروف دقيقة.

«أفسس... المدينة القديمة؟».

«تماماً... التي بُنيت في السابق حول سلجوق في غرب تركيا».

«هل الفخار مصدره من هناك؟ لا أرى أي ورود أخرى في الفخار. هل ستزرعين هاتين الوردتين في الحديقة أيضاً؟».

«نعم، الفخار مصدره أفسس. وقد أبقيناه في الداخل من حينها، لكننا أخرجناه في الليلة الفائتة. وسواء أكنا سنزرع وردة أفسس هنا أم لا، فإن الأمر يعتمد على هاتين الوردتين. أمامهما ثلاثة أيام، فإما تُزرعان في الحديقة، وإما تعادان إلى أفسس. وسيتم تحديد الأمر من خلال الامتحان الذي ستّخضعان له».

تعلّمت ديانا منذ فترة طويلة ألا تُفاجأ بالأمور التي تقولها زينب هانم، وسألت «أي نوع من الامتحان؟»، كما لو أن خضوع الورود لامتحان قبل زرعها هو أكثر الأمور طبيعية.

«إحدى أهم مزايا الورود في هذه الحديقة، قدرتها على العيش بتناغم معاً، بغض النظر عن الفروق في اللون، والحجم، والأصل. حياتها هنا خالية من النزاعات، والغيرة أو الغرور. لذا، علينا أن نكون اختياريين جداً وحريصين أكثر كلّما زرعنا وردة جديدة. فالورود تتأثر بعضها في بعض، وتأخذ، مع الوقت، حالة الورود المحيطة بها. ولدينا قول رائع حول هذا: عناقيد العنب تنمو لتصبح سوداء من خلال تبادل النظر». لهذا، نريد أن نعرف، قبل زرع وردة، هل سيكون تأثيرها سلبياً في الورود الأخرى.

«ثم إن حالة أفسس متميّزة على نحو خاص. أخذت هذه الوردة ذات الرأسين شكلها بعدما زُرعت في الفخار ذاته وردتان ذاتا صفات مختلفة كلّياً. ومع الوقت تداخلت جذورهما إلى درجة بات يستحيل معها الفصل بينهما. وما يجعلهما غير معهودتين، هو أنهما في نزاع مستمر. وعليهما، كي نزرعهما في الحديقة، أن تبرهنا أنهما تستطيعان تدبّر أن تصبحا وردة واحدة.

تطلّعت زينب هانم بانتباه إلى آفسس قبل أن تتابع «أخشى أن الأمر ليس على هذا القدر من السهولة. فبرغم أنهما تتحدران من المنطقة والتربة ذاتيهما، تنظر كل منهما إلى نفسها بمنظار مختلف جداً. كانت الوردة الحمراء مزروعة في معبد أرطميس في أفسس، والبيضاء في مقر مريم العذراء، أيضاً في أفسس. تعتقد الحمراء أنها أرطميس، إلهة الصيد، وترفض الرد على أي اسم آخر. وليس للبيضاء أي تفضيل في هذا الأمر، إلا أننا ندعوها ميريام».

«هل قلت إلهة الصيد؟» سألت ديانا. «أوَليست ديانا إلهة الصيد؟ ولأنني أحمل اسمها يدعونني أصدقائي أحياناً باسم «الإلهة»...».

«صحيح، فديانا، في الميثولوجيا الرومانية، هي إلهة الصيد. لكنها تُعرف باسم أرطميس في الميثولوجيا الإغريقية. وتعود الأساطير حول أرطميس إلى ما هو أبعد من ذلك، وقد خضعت لبعض التغييرات قبل أن تصبح تُعرف بديانا، في الكتب المقدّسة اللاتينية».

صمتت ديانا لبرهة قبل أن تسأل «ما طبيعة النزاع الذي تتورط فيه الوردتان؟».

• «أترغبين في أن أنقل حوارهما إليك؟».

أرادت ديانا حقاً سماع الحوار بين أرطميس وميريام، برغم أنها حاولت إخفاء ذلك عن زينب هانم.

«لمَ لا»، قالت. «إذا كان ذلك لا يتداخل مع أمثولتك...».

جلست زينب هانم على الأرض قرب الفخّار، وحذت ديانا حذوها.

«مرحباً، يا أفسس»، قالت زينب هانم، «هل يزعجكما أن نستمع إليكما لبعض الوقت؟».

استدارت بعد بضع ثوان إلى ديانا. «عنّفتني أرطميس قائلة، اسمي أرطميس وليس أفسس، أيتها السيدة العجوز! وبما أن هذه رغبتها، فسأتوجه إلى وردتَي أفسس باستخدام اسميهما الخاصين. سأبدأ بترداد حوارهما حرفياً، فهل أنت مستعدّة؟».

هزّت ديانا برأسها، وشرعت عندها زينب هانم في إيصال الحوار بين أرطميس وميريام:

«ألم يمكنك أن تكوني أكثر تهذيباً، يا أرطميس؟»، قالت ميريام. «لا يجب أن نبالي حقيقة بالاسم الذي تتم مناداتنا به».

«ماذا تقصدين بلا نبالي؟»، قالت أرطميس. لدي اسم

اسم عظيم على كل لسان، اسم ممجّد في السماوات. أنا أر... ط... ميس! اسمي مشهور والآلهة تعرفني جيّداً. أنا أرطميس المعظّمة، أجمل الجميلات. أنا إلهة ولست مجرّد وردة مثلك. فأفضل الأزهار الموجودة، ليست إلا زينة لمعبدي».

«ألاحظت شيئاً؟»، سألت ميريام.

«ماذا؟».

«جُل ما تقولينه هو أنا ولي».

«بالتأكيد سأقول أنا ولي! فإذا لم تستحق أرطميس أن تقول أنا، فمن يستحق؟ أزهرة فانية مثلك؟».

«تقولين دوماً الأمر ذاته: أنك إلهة وأنا مجرّد زهرة. لكنك تعلمين الحقيقة».

«أي حقيقة؟».

«آه، لا بأس. لا أريد إغضابك».

«أنت؟ تغضبينني؟ لا تجعليني أضحك أيتها الزهرة المسكينة. أزهرة ستصيب أرطميس بالغضب؟ هاه هاه هاااه!... افعلي أيتها الزهرة المضحكة، أرجوك أن تحاولي إغضابي».

«حسناً، يا أرطميس، لكن قولي لنا أولاً من هي أرطميس حقيقة. أخبرينا ذلك لتعرف الحديقة كلّها».

«آه، يا للتفاهة! ومن لا يعرف أرطميس؟ من لا يعرفني؟».

«نحن لسنا في معبدك يا أرطميس. هذه حديقة ورود. قد لا تعرف الورود من تكونين. أوَليس من حقها أن تعرف من هي أرطميس المعظّمة؟ أنت الأعظم، لذلك أرجوك أن تشرّفينا وتخبرينا عن نفسك».

«ها أنت، لمرّة، تخبرين الحقيقة أيتها الزهرة. نعم، من حق الجميع أن يسمعوا عن عظمتي؛ وعلى الورود أيضاً أن تعرف مدى عظمة أرطميس. لذا اصمتوا واصمتن واسمعن...

«أنا! أنا أرطميس ابنة زوس، رب الآلهة. كنت أعيش في أفسس، المدينة التي اشتهرت بمعبدي، وليس بسبب منزل مريم العذراء المتهادم القديم. وطوال مئات من السنين، استقبلتُ أولئك الوافدين لعبادتي في معبدي الذي هو واحدة من عجائب الدنيا السبع. جاء آلاف الأشخاص، متكوكبين كالنمل، من أماكن بعيدة، فقط من أجلي. جاؤوا حشوداً، لتمجيدي، وتعظيمي، والركوع أمامي، يطأون بعضهم بعضاً بسبب تشوّقهم.

«أتفهمين أيتها الزهرة التي لا قيمة لها، أترين عظمة أرطميس الآن؟ هؤلاء الناس الذين قطفوا أزهاراً مثلك وحشروها في الأواني، جاؤوا إلى عتبتي كالعبيد.

«هاي، يا ورود الحديقة، أوَتسمعينني؟ ها أنت الآن تعرفين عظمة أرطميس، أليس كذلك؟».

«قلتِ تماماً ما توقعتك أن تقوليه»، قالت ميريام. «عندما طلبت منك أن تخبرينا عن نفسك، شرعت في إخبارنا عن والدك، وعن روعة موطنك، وعن أولئك الذين مجّدوك. إلا أنني لم أسأل عن أي من ذلك. كل ما سألته هو من أنت».

«أيتها الزهرة المسكينة البائسة، ما الذي تحاولين قوله؟ إذا أردت أن تعرفي من أنا، فاعرفي إذاً أنني العظمة. هذه من أنا».

«ما الذي يجعلك تعتقدين أنك على هذا القدر من العظمة؟».

«هل سيهتم بي آلاف الناس لو لم أكن عظيمة؟ هل سيمجّدونني إلى أن تعلق ألسنتهم في حلوقهم؟ هل كنت لأستعبدهم؟».

قالت ميريام «الحقيقة أنهم هم الذين استعبدوك. لكنك وَحسب لا تريدين رؤية ذلك».

«آه، أنت غيورة كثيراً إلى درجة أنك لا تعرفين ما الذي تتحدثين عنه».

«هذا صحيح، أنت بالفعل عبدة لهم. من هي أرطميس حقيقة؟ لا شيء سوى وهم، كوّنه آخرون وعبدوه. من خلق أرطميس؟ أوَليس أولئك البشر الذين تحتقرينهم إلى هذا الحد هم الذين خلقوا في أذهانهم صورة للجمال يعبدونها، ومن ثم أعطوك، بتمجيداتهم، هذا الشكل؟ لا تنخدعي بكونهم تكرّسوا لك لاحقاً. فهم الذين اخترعوك، وهم الذين حدّدوا مزاياك، وهم الذين عظّموا اسمك. أنا آسفة، لكنك لم تملكي وجوداً مستقلاً بنفسك. أنت موجودة فقط من خلالهم. موجودة بتمجيداتهم، وعباداتهم، وتصفيقهم. أنت منذورة لإرادة الآخرين».

«ها أنت تتجاوزين حدودك كثيراً، أنت أيتها الزهرة! انظري أولاً إلى نفسك قبل أن تتكلّمي: من تعتقدين نفسك لتتحدّثي معي بهذه الطريقة، أنت أيتها التافهة؟».

«نعم، أنت على حق، فأنا لست عظيمة. لكنني وردة... أنا وردة، سواء أتم الإعجاب بي أم لا، وسواء أعشقني أي كان أم لم يعشق... أنا، كما قلت، لست شيئاً عظيماً. مجرّد وردة... لكن، أتعلمين ماذا يعني أن تكوني وردة، يا صديقتي؟ أن تكوني وردة، يعني الحرّية. يعني عدم الوجود من خلال

تعظيمات الآخرين، أو الكف عن الوجود من خلال استنكارهم. لا تفهميني خطأً؛ فأنا أيضاً أحب الناس. أريدهم أن يزوروني ويشموا أريجي. لكنني أريد هذا فقط، بحيث يمكنني أن أقدّم إليهم عطري.

«صحيح، ربما لم أحظ بهذا القدر من الزوار مثلك. ربما أن الذين جاؤوا لزيارة منزل مريم العذراء لم يلاحظوا الوردة الصغيرة المزروعة هناك. إلا أن ثمة حفنة من الأناس الذين لاحظوني. لكن، لا تخلطي أبداً هؤلاء الناس مع النوع الذي جاء لعبادتك».

«بالتأكيد لا، وكيف يمكنني ذلك؟»، قالت أرطميس. «زواري جاؤوا بالآلاف!».

«أتذكرين كيف أن أولئك الذين توافدوا إليك زرافات زرافات في أيامك المشرقة، أخذوا يهجرونك، الواحد تلو الآخر، بمجيء الخريف؟ ولم يقف أحد إلى جانبك في عز الشتاء. ولم تؤدّ كبرياؤك إلا إلى زيادة عزلتك، ولم يمكنك حتى الانتحاب بسبب كبريائك تلك. فكلّما رفعك تمجيدهم عالياً في ربيعك، كلّما جاء سقوطك كبيراً عندما واجهت الخريف. أدى التغيير في الطقس إلى صرعك فوراً».

«هراء! هكذا هو الخريف».

«ليس بالنسبة إلى الورود، يا أرطميس... الخريف للوردة يعني المطر. الخريف يعني وقت الاستعداد للربيع. وأولئك الذين يأتون من أجل وردة، ليسوا أبداً غير مخلصين مثل أولئك الذين أتوا لعبادتك. الذين يعبدون، يعبدون فقط من أجل ذواتهم. وعلى عكس زوارك، فإن من زاروني، إنما جاؤوا فقط من أجل عطري. الحب لا يحطّ من قيمة المحبين، بل يرفعها».

«آه، أنت أيتها الوردة العديمة النفع، ما الذي يمكنك فهمه في أن يكون المرء معبوداً؟».

«آسفة يا صديقتي، لكن أولئك المتكرسين لك بحرارة، سيهجرونك في يوم من الأيام، لأنهم لا يعبدونك أنت، بل يعبدون أهواءهم. سيأتي يوم تعرف فيه أهواؤهم إلهةً أخرى. إلهةً أكثر جمالاً، وإغراءً، وإرضاءً! وهكذا، يتم نسيانك. ولأنك تدينين بوجودك لتعظيماتهم، فسينتهي وجودك ما إن يتم نسيانك».

«كلا، سأحيا إلى الأبد! أنت هي الفانية، أتذكرين؟».

«صحيح أنا لست بخالدة. سأذبل في يوم من الأيام، وأعود إلى التراب. سأموت، لكن حياتي لن تنتهي. لأن التراب سيغذّي وردة أخرى. ولن يتذكّرني أحد سوى أولئك الذين أحبوني من أجل عطري. لن يفكّر أحد في أنه يبقى في

وسع وردة ميتة أن تطلق عطرها الجميل. لكن، ستشع ابتسامة على وجه أصدقائي عندما يشمون الهواء الذي أنجرف فيه. وهكذا، سأبقى قادرة على القول: لم تذهب حياتي سدى. وسأقول إن الظلام الذي عشته قبل أن تتفتح وردتي لم يذهب هدراً. أنا سعيدة لأنني أكتفيت بأن أكون مجرّد وردة...

«هيا، يا صديقتي، يمكنك أنت أن ترضي بكونك مجرّد وردة. توقّفي عن تعمية الحقيقة. أظهري وجهك الوردي، وصيري واحدة معي. هيا، لنسأل البستانية أن تكسر فخارنا. ألا ترين أنه حتى أكبر الفخار، صغير جدّاً على الورود الحقيقية؟».

«لستُ وردة، أيتها الزهرة الغبية!»، قالت أرطميس. «أنا إلهة!».

«إذا كان ارتداء قناع العظمة يجعلك سعيدة، فلا تنزعيه، وواصلي ارتداءه. احرصي على قول أنا، استمري فيه لكن اعرفي أن ثمة ثمناً لذلك. اعلمي بأن ثمن قولك أنا كل الوقت، هو نسيانك حقيقة من أنت...».

«أيتها البستانية! أنت أيتها المرأة العجوز! خذي هذه الزهرة التي تستدعي الشفقة بعيداً عني!».

«تعلمين، يا صديقتي»، قالت ميريام، «يستحيل تفريقنا من

جديد. علينا، سواء أحببنا ذلك أم لم نحبّه، أن نعيش حياتنا كلّها معاً. وما استمررنا في كوننا صوتين مختلفين يتحدّثان في إناء واحد، فلن نكتفي بعدم العثور على السلام معاً، بل سنعكّر صفو الورود الأخرى أيضاً، وحتى السلام مع الناس... وسننساب بين أولئك الذي يشمّوننا على أننا صوتان متعارضان. تقولين أنت مرّة شيئاً، وأقول أنا في المرة الثانية شيئاً، مرّة أرطميس ومرّة ميريام، ويستمر الأمر على هذا المنوال. وسنتحدّث أحياناً معاً. وكما لو أن الضجيج في فخارنا لا يكفي، سنوصل ضجيجنا إلى الناس. لكن لا يحق لنا أن نجعل أياً منهم أو منا تعيساً».

«إذا كان الأمر كذلك»، قالت أرطميس، «فانصاعي لصوتي. صيري أنا!».

«تأكدي لو أنه أمكنني ذلك لفعلت. سأعلن للعالم كله أنني أرطميس لأشكّل وحسب صوتاً واحداً معك. لكنني لا أستطيع. ليس فقط لأنني أعلم بأنني وردة، بل لأنني أعلم أيضاً بأنك واحدة أيضاً. ربما أمكنني التخلّي عن نفسي، لكن لا يمكنني أبداً التخلّي عنك. لأنني، من خلال رؤيتي لك، تمكّنت من معرفة نفسي».

«لا يمكن ذلك أن يكون صحيحاً، فأنا أرطميس وأنت لست سوى زهرة مسكينة».

«سمعت، يا أرطميس، أنهم يدعونك حامية الفقير، وأنك أيضاً تستخدمين سهمك لتقدّمي الموت الفجائي العذب... هل هذا صحيح؟».

«نعم، بالتأكيد، ذلك كله صحيح».

«حسناً، إذا كنتُ فقيرة، فاحمني إذاً. احمني منك! الآن، وفي هذه اللحظة! شدّي قوسك، اسحبي سهمك، وأنزلي بنفسك الموت الفجائي اللذيذ. لا تخافي، لن تضمحلّي إلى العدم. أرطميس لم تحظ قط بوجود حقيقي، فكيف يمكنها أن تتوقف عن الوجود؟ لكن، ما إن تذق ذاتك الخيالية طعم الموت اللذيذ، حتى تُولَدي من جديد... تُولَدي من جديد كوردة. أعرف أن هذا ليس سهلاً، لكنني أرجوك أن تحاولي.

«إذاً... هل تحاولين؟».

لم تجب أرطميس.

«أرجوك»، قالت ميريام. «تذكرين كونك وردة، أليس كذلك؟».

لاذت زينب هانم بالصمت لبرهة. ثم استدارت صوب ديانا:

• «ترفض أرطميس الرد على ميريام».

«ألم تقل أي شيء؟»، سألت ديانا.

«لا شيء»، قالت زينب هانم، وهي تنهض على قدميها. «أعتقد، يا عزيزتي، أن ذلك يكفي لليوم. أمثولتنا ليوم غد، وهي الرابعة والأخيرة، ستبدأ في الدقيقة الواحدة بعد الرابعة فجراً».

شعرت ديانا كما لو أن كل جزء منها، وبخاصة ذهنها، قد أصابه الخدر. أرادت قول أمور كثيرة، لكنها اختارت أن تبقى صامتة.

٣٤

وقفت ديانا بقميص النوم الأبيض عند باب الغرفة الرقم واحد. كيف سيكون ردّ فعل زينب هانم على ضيفة غير مدعوة، تقرع بابها ما بعد منتصف الليل؟

أن تقرع الباب أو لا تقرع، فكّرت... تلك هي المسألة.

لو أن بمقدورها فقط أن تنتظر ثلاث ساعات أخرى فتسأل زينب هانم في الحديقة جميع الأسئلة التي تريد، فلا تزعجها في هذه الساعة المجنونة. إلا أنها لم تستطع مواجهة فكرة التململ والتقلّب في السرير طوال تلك الساعات.

دقّت على الباب بلطف.

فتحت زينب هانم في غضون ثوان. وأول ما لاحظته ديانا هو قميص نوم زينب هانم الأبيض الشبيه جداً بقميصها الذي ترتديه. بل هما في الواقع نسخة طبق الأصل.

«آسفة لإزعاجك، فربّما أويتِ إلى سريرك، وربما أنا

أنتهك أنظمتك، لكن لم يمكنني الانتظار. احتجت فعلاً إلى التحدّث معك. لكنني أخمّن أنه ليس الوقت المناسب...».

«إنها الواحدة، يا عزيزتي. وأنا على وشك النوم. وهو ليس بالتأكيد الوقت المناسب لقرع باب أي كان، ناهيك بامرأة كبيرة في السن مثلي».

إنها قطعاً على حق. ولا يمكن لديانا أن تلومها. ودّت لو أن الأرض تنشق وتبتلعها.

«ادخلي، أرجوك»، قالت زينب هانم.

«لكنك قلت للتو...».

«أتعتقدين أنني لا أدرك كم هو صعب عليك قرع الباب في هذا الوقت من الليل؟ لكنك فعلت، لصعوبة أن تنامي في سرير في وضع غير مريح من المجيء إلى هنا. وفي حالة كهذه، يكون لدى المرء ما يقوله وهو أمر يجدر الاستماع إليه. ادخلي».

دخلت ديانا، مطأطئة الرأس، إلى الغرفة ذات الإضاءة الضعيفة.

جلستا متواجهتين قرب النافذة المطلّة على الحديقة.

«لا أعرف من أين أبدأ...».

«لماذا لا تبدئين بالجزء الأصعب، والبقية ستلي».

«ماريا»، قالت ديانا. «ماريا وأنا... ماريا... إنها دوماً في بالي. لا أستطيع منع نفسي عن التفكير فيها... أعرف أنه لم يبقَ الكثير من الوقت حتى نلتقي. من يدري، ربّما غداً... لكن الأمور التي اختبرتها هنا، في الحديقة...».

توقّفت لبرهة، ثم تابعت:

«أجبرت نفسي، قبل أن ألتقيك، على الاعتقاد أن ماريا مجنونة. ووضعت الاحتمالات الأخرى كلّها جانباً. فهي، على أي حال، أشارت في رسالتها إلى الحديث مع الورود... لكنني لا أعتقد أن هذا هو السبب الوحيد الذي دفعني إلى أن أُبعد نفسي كلّياً عنها. فهي التي جعلت والدتي تعيش أيامها الأخيرة في القلق والخوف. إلا أنني، إلى جانب ذلك كلّه، شعرت وأنا أقرأ رسائل ماريا بأمر آخر... أمر خفت الاعتراف به حتى لنفسي: أمر خشيت أنه سيدمّرني...».

«ما هو؟».

«بدت ماريا كأنها الشخص الذي طالما أردت أن أكونه، لكنني فشلت في أن أصبحه. لم يمكنني إلا الشعور بأنها شبيهة كثيراً بوالدتي...».

أطلقت ديانا تنهيدة قبل أن تواصل: «ليس، بالطبع، من

شيء خاطئ في أن تصبح الابنة كأمها. لكن إذا كانت الابنة التي فُصلت عن أمها، وهي في عمر السنة، تشبهها أكثر من شقيقتها التوأم التي عاشت معها أكثر من ٢٤ عاماً، فهذا أمر يصعب كثيراً على التوأم قبوله، وبخاصة إذا فقدت التوأم أمها في الوقت الذي بدأت فيه للتو باكتشافها، وخصوصاً إذا لم تسنح للتوأم فرصة أن تقول لأمها كم أنها تريد أن تكون مثلها...».

امتلأت عينا ديانا بالدموع. قرّبت زينب هانم كرسيها أكثر وأخذت بيدي ديانا.

«لا تقلقي، يا عزيزتي، ستكون والدة كهذه قد عرفت بالفعل ما تودّ ابنتها قوله، حتى ولو لم تتح لها الفرصة...».

«أدركت، بعد مجيئي إلى هنا، أن ما قاومتُ أخذه من أمي، قد أخذته ماريا منك. وهذا هو السبب الذي يمنعني من أن أكون كماريا».

«لماذا تعتقدين أن من غير الممكن أن تشبهيها؟».

«تعوّدت أمي القول إن الأمر الوحيد الذي تحتاجين إليه لتشعري بالتميّز هو نفسك. لكنني لم أشأ أن أفهم هذا. احتجت دوماً إلى أمر آخر: الانتباه، الثناء، أي شيء يُشعرني بأنني متميزة...

«لم أكن شخصاً يستطيع العيش من دون أن يبقى محط إعجاب. أحببت كوني جميلة الحفل. أحببت ديانا في عيون الآخرين. وربما بسبب هذا وحسب، تخلّيت عن حلمي الأكبر بأن أصبح كاتبة.

«بدا كما لو أن رسالة ماريا الأولى تصفني. انتباه الأناس المحيطين الدائم بها، وواقع أنها، برغم هذا، ليست سعيدة، وأنها كادت تتخلى عن حلمها الأكبر فقط بسبب الآخرين...».

«ترين يا عزيزتي أن ماريا مرّت مثلك بالأمور ذاتها، وليس وحدك وحسب. فجميعنا، إلى حد ما، نتخلّى عن جزء منّا للحصول على القبول من أناس آخرين».

«نعم، لكن ماريا تمكنت في النهاية من مواصلة حلمها. وهي، على العكس مني، لم تستعبدها توقعات الآخرين... هل تعرفين بماذا فكّرت في درسنا الأول حين استمعنا إلى الزهرة الصفراء؟ بدا كما لو أن ماريا هي الزهرة الصفراء وأنا فينوس... وفي وقت لاحق، ميريام وأرطميس...».

توقّفت ديانا لترى إن كانت زينب هانم ستُظهر أي ردّ فعل على التشبيه الذي رسمته بينها وبين فينوس وأرطميس. ولمّا تأكدت من أن تعبير زينب هانم لن يتغيّر، تابعت: «لا أقول هذا لأن ديانا هي الاسم الآخر لأرطميس، أو بسبب الارتباط

بين اسمَي ميريام وماريا. صدقيني، لقد تعلّمت ألا أشغل ذهني بمصادفات لا أستطيع شرحها.

«لكن يوجد أمر واحد يجب أن أشغل عقلي به، وهو واقع أنني، مثل أرطميس، معتمدة على الآخرين... ولإخفاء هذا، جلت على مدى سنين مرتدية قناع الإلهة. وها إنني أدرك الآن أنني في محاولتي أن أصبح أعظم، أصبحت أصغر وحسب... هل أنا مخطئة؟ أليس ما أقوله عن ماريا وعنّي هو الحقيقة؟».

«ديانا، أنتِ تشتكين من تأثير الآخرين فيك، لكنك تطلبين في الوقت ذاته رأي إنسانة أخرى. لا تنسي أنني أيضاً واحدة من الآخرين».

«لا، يا زينب هانم. تقول ماريا إنك من اللاآخرين، وأنا أوافقها الرأي. أرجوك، أخبريني بالحقيقة، وبأنني لست مخطئة في ما أعتقده في شأن ماريا وفي شأن نفسي، أليس كذلك؟».

نظرت زينب هانم إلى ديانا وقد امتلأت عيناها بالعطف. «أعتقد أنك تقسين كثيراً على نفسك، يا ديانا. ما من أحد منّا مثالي. وليس علينا أن نكون. الجميع يرغبون في أن يكونوا محط إعجاب وقبول من الناس حولهم، وهذا طبيعي جداً».

«وماذا إذا عشنا الحياة التي اختارها الآخرون لنا بدلاً من تلك التي نختارها لأنفسنا؟ أهذا طبيعي أيضاً؟».

«يا عزيزتي، لا يحق لي أو لأي أحد آخر الحكم على طريقة عيشك لحياتك. ربما يمكنني أن أعلّمك كيفية الاستماع إلى الورود، ويمكنني، في هذا الموضوع، أن أُسديك الكثير من النصح. يمكنني، في الحديقة، أن أقول لك أن تفعلي هذا الأمر أو ذاك، ما دمت مهتمّة بالاستماع. ذلك أنني أعرف فن الاستماع إلى الورود، وأنت لا تملكين سوى معرفة بسيطة عنه. وأنتِ طلبت مني أن أعلمك إياه. لكن، لا تسأليني عن نفسك، يا ديانا. أنا لا أعرفك. وحتى لو عرفتك، فلن يمكنني أبداً أن أعلّمك عن نفسك.

«أما، في ما يتعلّق بماريا، فالحقيقة هي أنني أعرف عنها أقل بكثير مما تعتقدين. فأنا لم أرها بأكثر مما رأيتك. لكن يمكنني أن أرى، من خلال ما أعرفه، إنسانة شجاعة للغاية».

وأضافت «وجميلة مثلك».

ابتسمت ديانا ابتسامة تقدير لزينب هانم.

وفكّرت في نفسها: أنا سعيدة لأنني طرقت على الباب. لم تشعر بالرغبة في العودة إلى غرفتها، بل تمنّت لو أن في وسعها البقاء مع زينب هانم طول الليل.

لكن ما النفع من ذلك؟ ألم تبق مع والدتها لخمسة وعشرين عاماً؟

«أعتقد أن علي الذهاب الآن»، قالت ديانا. «لا أعرف كيف أشكرك على وقتك وعلى لطافتك».

«لم أفعل شيئاً»، قالت زينب هانم. «إلا أنك بالتأكيد على حق يا عزيزتي، فعليك بقسط من الراحة. فالأمثولة الأخيرة هي الأقسى من بينها كلّها».

٣٥

عندما نزلت ديانا إلى الحديقة، كان الظلام حالكاً، وتفصلها عن بدء الأمثولة ١٩ دقيقة فقط. جاءت هذا الصباح باكراً بعض الشيء لتمضي بعض الوقت وحدها مع الورود قبل بدء الدرس.

كانت على وشك ولوج الحديقة، عندما سمعت فجأة وقع أقدام مقتربة على أرضية المنزل الخشبية. لم تبد أبداً شبيهة بخطوات زينب هانم؛ وهي التي تأتي دوماً على الموعد تماماً، لا تسبّق دقيقة ولا تتأخر دقيقة. كما أن خطواتها ثابتة دائماً وغير مستعجلة. لكن وقع الخطوات المقتربة سريع وقلق، وسرعتها تزيد باطراد. وبدا، من صوت وقعها، كما لو أن الشخص يكاد يركض.

كانت بالفعل زينب هانم التي جاءت إلى ديانا وهي تلهث، ووجهها رطب من التعرّق.

«آه، ديانا»، قالت بصوت مضطرب، «أعرف أنك تنتظرين هذا بالفعل، لكن. . .».

«ما الأمر؟ أهي، هل هي ماريا؟!».

أحنت زينب هانم رأسها.

«ما الذي جرى؟ أرجوك أخبريني بكل شيء الآن».

«اتصلت ماريا وأنا نائمة. إلا أنها، لحسن الحظ، تركت رسالة. قالت إن ثمة طارئاً قد حصل واضطرها إلى الذهاب إلى ريو دي جانيرو».

«آه، يا إلهي! لا بد من أنها عرفت بمرض أمي. يجب أن أعود إلى الديار فوراً. عليّ أن أصل إلى المنزل قبلها!».

«لكن سبق لماريا أن. . .».

«آمل أنها لم تعرف بوفاة أمي»، تمتمت ديانا.

ما الذي يفعله خبر موت الوالدة بفتاة كرّست حياتها كلّها للقاء أمها؟ مجرّد التفكير في ذلك أصاب ديانا بالقشعريرة. لكن ماريا قالت إن الأمر طارئ. وهي لن تكون على هذه الدرجة من الاستعجال لرؤية قبر، أليس كذلك؟

«آسفة، لكن عليّ أن أذهب وأوضب أمتعتي فوراً».

«بالتأكيد يا عزيزتي، وسأقوم في غضون ذلك بحجز مقعد لك على أول رحلة جوية».

توقّفت ديانا فجأة وهي على وشك العودة إلى الداخل. استدارت وهرعت صوب وسط الحديقة وسقطت على ركبتيها أمام الزهرة الصفراء. داعبت فليجاتها برؤوس أصابعها:

«أنت محقة، أيتها الزهرة الصفراء. هو الأريج الذي، فوق كل شيء، يجعل من الوردة وردة».

٣٦

وصلنا إلى المطار في الموعد تماماً بعدما تم العثور على مقعد لديانا في رحلة الظهر. عانقت ديانا زينب هانم قبل أن تقف في رتل التدقيق في الجوازات.

«أشكرك على كل ما فعلته من أجلي. لا أعرف كيف يمكنني أن أرد لك الجميل. فالأيام التي أمضيتها معك هي ربما أروع أيام حياتي. ولو أنه سبق لك والتقيت بأمّي لفهمت لماذا يمكنني أن أقول ربّما وحسب».

«اشكري نفسك، يا ديانا. لا علاقة لي أو بدروسي التي لم تنته بما جعل هذا الأسبوع مميّزاً. ما جعله بتلك الروعة، هو الشجاعة التي واجهتِ بها الورود. وهذا ليس بأمر يمكن شخصاً أن يعطيه لشخص آخر.

«جئتِ إلى هنا بوصفك شخصاً ذكيّاً، وعلى درجة كبيرة من الثقافة. لكن هذا لم يمنعك من محاولة الاستماع إلى

الورود. صدّقيني، ليس الأمر بالسهولة التي قد يعتقدها المرء. وحدهم الذين يملكون الشجاعة في التخلي عن الجيد، يمكنهم إدراك الأفضل. وأنت تملكين تلك الشجاعة».

ابتسمت ديانا: «لا أعتقد أنني أستحق مثل هذا الثناء، لكنني فرحة كثيراً لحصولي على امتياز معرفتك. أريدك أن تعرفي أنني أترك قلبي هنا. وآمل أن أعود، في يوم من الأيام، إلى الحديقة لإكمال أمثولتي التي لم تنته».

«نكون حيثما تكون قلوبنا. إذا كان قلبك هنا، فلا يهم مدى بعدك الجسدي، والأمثولة ستكتمل، لا شكّ في ذلك».

تناولت زينب هانم قارورة عطر صغيرة من حقيبة يدها. «لم يتسع لي الوقت، في العجالة، للفها لك. إنها عطر ممزوج من أريج ورود الحديقة. فيها مئة أريج مختلف، من بينها أريج سقراط. الأمر الأكثر ميزة في هذا العطر، أنه يبدو مختلفاً في كلّ مرّة تشمينه. أنا واثقة من أنه سيناسبك تماماً».

«لا أدري ماذا أقول. لا يمكنك أن تتخيلي ما يعنيه هذا بالنسبة إلي. وأنا آسفة لأنه ليس لدي ما أقدّمه إليك».

«سبق أن فعلت، يا عزيزتي. كونك ضيفة شكّل أعظم هديّة يمكنك أبداً أن تقدميها إلي».

للحظة، عندما حان موعد الفراق، رأت ديانا والدتها في عيني زينب هانم العميقتين الزرقاوين. وضعت حقيبتها أرضاً، وعانقتها بحرارة مرة أخرى. «آه، لا يمكنني تصديق ذلك، فأنت تشبهين أمي كثيراً...».

همست زينب هانم في أذنها. «يوماً ما، يا عزيزتي، ستتمكنين أنت أيضاً من سماع الورود. وعندما يحصل، لا تفكّري في الأمر على أنه معجزة، لأن ذلك سيجعلك تنسين أن كل لحظة من لحظات الحياة هي معجزة. تذكّري دائماً أن الورود ليست وحدها هي التي تحكي، بل كلّ شيء يتكلّم».

٣٧

انتظر الركّاب باضطراب، وقد تملّكهم التوجّس، عند سماع صوت الربّان يعلن عدم وجود ما يثير القلق. بدا كما لو أن الجناحين قد يتكسران في أي لحظة، بينما الطائرة تتأرجح صعوداً وهبوطاً في شكل مسقم. أثار كل صوت ميكانيكي مهول يصدر من الطائرة، رعب الجميع، في ما عدا ديانا.

انتظرت ديانا بفارغ الصبر أن ينطفئ ضوء «شدّوا أحزمة المقاعد» لتتمكن من تناول دفتر يومياتها من الخزانة الموجودة فوق الرأس.

لا يبدو أن هذه الإشارة ستنطفئ أبداً...

حلّت حزام مقعدها ووقفت على قدميها، ولم تنتبه إلى نظرات الركاب الآخرين أو المضيفة الجوية الجالسة في مؤخرة الطائرة المحدقة إليها. عند هذه اللحظة ارتجّت الطائرة من جديد، ووجدت نفسها في حضن الراكب الجالس قربها.

«آه، أنا آسفة جداً يا سيدي».

«كان يمكن أن تؤذي نفسك، يا آنسة. من الأفضل لك أن تجلسي».

أشارت إليها المضيفة مصرّة على أن تجلس، واستدار بعض الركاب كما لو أنهم يتساءلون عمّا بها.

سوّت وقفتها وبلغت الخزانة لتتناول حقيبتها، وقد تقافزت صعوداً ونزولاً، وكادت تسقط في أي لحظة على رأس راكب آخر. لكنها تمكّنت من التقاط الحقيبة أخيراً بدون وقوع أي حادثة.

فتحت ديانا يومياتها، وشرعت تكتب بأحرف ملتوية بين فترات الاضطراب:

«أمي الحبيبة،

أريد أن أسألك أمراً...

وُلدت ماريا قبلي، أليس كذلك؟

ولسوء الحظ، فهي لا تزال تسبقني بخطوة الآن. وربما هي، وأنا أكتب هذا، على وشك الانضمام إليك...

في الحقيقة، يا أمي، استحقّت ماريا أن تكون معك منذ زمن طويل جداً. وهي بالتأكيد تستحقك أكثر مني. فهي تحبّك بجنون.

لا تفهميني خطأً، فأنا أحبّك أيضاً. أحبّك بقدر ما تُحبّك. لكنها أحبتك من دون أن تعرف عذوبة كونها ابنتك. أحبّتك من دون الحصول على مقابل منك، أو تجد ملجأً بين ذراعيك عندما تصاب بالخوف، أو تغفو ورأسها يعانق صدرك. وعلى ما تعوّدتِ قوله، فإن «الحب ليس حبّاً إذا طلب المُحبّ شيئاً في المقابل».

وبالتالي يا أمي... من منّا تستحق أكثر أن تكون ابنتك؟ أماريا أم أنا؟ لم أعد خائفة من الجواب. إنها توأمي. وبما أنني آتي دوماً في عقبها، فربّما أستحق، في يوم من الأيام، أن أكون ابنتك أيضاً.

وبعدُ، أوَلم نتشارك، أنا وهي، في القدر ذاته حتى الآن: ترعرعْنا مع فرد واحد من أهلنا، إحاطتُنا بالانتباه من الآخرين، عشقُنا الروايات، أحلامنا، زينب هانم وحديقة الورد... واستناداً إلى الترتيب الذي حصلت فيه الأمور لماريا، فلا بد من أن دوري سيحين قريباً للتحدّث إلى وردة... لكن هذا ليس مرجّحاً كثيراً بالنسبة إلي في هذا الوقت بالذات. لا يزال جزء منّي يعتقد أن مثل هذه الأمور لا تحصل إلا في قصص الجن.

لكن ثمة سؤالاً لا أستطيع حرفه عن ذهني، يا أمي... لا يَقطع «الأبطال، في قصص الجن، أبداً وعوداً لا يستطيعون

الوفاء بها، أليس كذلك؟ وفي هذه الحال، إذا كانت الأمور التي سمعتها في حديقة الورد جزءاً من إحدى قصص الجن، ألا يجعل ذلك من زينب هانم البطلة؟ لذا عليها الوفاء بوعدها، أليس كذلك؟ لقد قالت لي «أنتِ أيضاً، ستسمعين الورود في أحد الأيام».

لا أدري يا أمي...

الخيالي ـ الواقع؛ الخوف ـ الأمل؛ أنا ـ ماريا... كم أن الأمور باتت متداخلة.

أحتاج كثيراً جداً إلى سماع صوتك...

ديانا،
ابنتك الصغيرة».

٣٨

ما إن رأت ديانا سائق الفندق الذي جاء ليقلّها من المطار، حتى سألته «هل جاء أحد إلى الفندق سائلاً عن أمي؟ واحدة تشبهني تمام الشبه؟».

«ليس على حد علمي، يا آنسة أوليفيرا».

«دعنا إذاً نتوقف سريعاً في الفندق قبل ذهابنا إلى المنزل».

أخذت ديانا تعدّ الدقائق إلى أن وصلا أخيراً. لكنها، لخيبة أملها، حصدت الجواب ذاته من موظفي الفندق، ولاحقاً من الأناس الذين يعملون في المنزل. لم يسأل أحد عن والدتها. لم تشأ ديانا لأحد أن يعرف، في الوقت الراهن، أن لها توأماً، فقد حاولت أن تسأل «هل رآني أحد هنا الأسبوع الماضي؟». ولم يأخذ أحد السؤال على محمل الجد. فالجميع يعرفون أنها كانت غائبة.

قد يعني واقع أن ماريا لم تأت لا إلى الفندق ولا إلى المنزل، أنها لم تعلم بعدُ بموت والدتها. وهذا خبر جيّد. لكن ديانا لم تستطع أن تعرف السكينة كون ماريا قد تكون علمت بالأمر من مصدر آخر.

لم يسعها القيام بشيء سوى البقاء في المنزل والانتظار. سارت لساعات صعوداً ونزولاً في المنزل، تصيخ السمع علّ جرسي الباب أو الهاتف يرنان. لكن، لم يأت أحد، ولم يتّصل أي كان...

استمر هذا الانتظار حتى منتصف الليل عندما استسلم جسمها المنهك للهزيمة، وغفت في حضن الأريكة السوداء.

٣٩

أجفلها جرس الباب، فأفاقت فجأة وهرعت إليه وبلغته قبل السيدة لوبيز. إنه ساعي البريد. أخذت ديانا المغلّف من يده وأوصدت خلفه. لم يحمل المغلف اسماً ولا عنوان المُرسِل، لكن تملّكها شعور بأن له علاقة بماريا. فتحته بسرعة:

«أمي الحبيبة،

وصلت اليوم إلى ريو دي جانيرو. أبلغوني بوفاتك، ولم أصدّق الأمر.

ماما، أين أنت؟ إلى أين مضيت ونحن أخيراً على وشك اللقاء؟

آه، أمي، أفتقدك كثيراً جداً... وأنت تفتقدينني، أليس كذلك؟

تعالي إذاً وخذيني. أنا موجودة في العنوان المكتوب في رسالتي الرابعة.

أنا واثقة من أنك ستأتين لأنني أعرف أنك حيّة.

عليك المجيء.

لأنه سيكون عليّ، إذا لم تأت، أن أقبل بما طالما قاله لي الآخرون، على أنه الحقيقة. وسيكون علي أن أقبل بأنني لن ألتقيك أبداً في هذا العالم.

وفي تلك الحالة، سأقوم بما يتطلّبه الأمر، وآتي إليك بنفسي.

ماريا»

«يا إلهي»، همست ديانا. «لا توجد رسالة في المغلّف الرابع».

٤٠

اتصلت ديانا هاتفياً بزينب هانم لتبلغها بملاحظة ماريا، ثم أخذت تفتّش عن الرسالة الضائعة في كل زاوية من زوايا المنزل، لكنها لم تتمكن من العثور عليها في أي مكان برغم بحثها في الصندوق القديم، وفي غرفة والدتها، وفي المكتبة، وبعثرتها كل مخبأ ممكن.

قرابة المساء، رنّ جرس الهاتف.

«مرحى، يا ديانا»، قالت زينب هانم. «هل تمكنت من العثور على الرسالة؟».

«كلا، لقد فتّشت في كل مكان. وأنا على وشك أن أجن».

«لا تقلقي. أنا متأكدة من أن ماريا ستحاول الاتصال بأمك من جديد عندما لا تحصل على جواب منها».

«سألتُ الجميع هنا، وقالوا إنها لم تأت لا إلى الفندق

ولا إلى المنزل. ولا فكرة لدي عمن قد يكون أبلغ ماريا بوفاة والدتنا. أنا خائفة كثيراً من قيامها بأمر غبي».

«لا، لا، يجب ألّا تفكّري بهذه الطريقة. فهي، في نهاية المطاف، ستتصل بي عندما لا تسمع خبراً من أمك، لا تقلقي... سأرسل إليك غداً طرداً بالبريد السريع. افتحيه، وإذا جاءت ماريا، أرجوك أن تسلميها إياه. ربما يشكّل ذلك بعضاً من تعزية لها. وأنت تابعي بحثك عن الرسالة يا عزيزتي».

«ربما لا وجود لمثل تلك الرسالة».

«ألم تقولي بوجود مغلّف رابع؟ إذا وُجد المغلّف، فلا بدّ من وجود رسالة».

٤١

بحثت ديانا عن الرسالة طوال يومين من دون توقّف، لكن الأمر لم يُفضِ إلى شيء. ذهبت حتى إلى قبر والدتها لتسألها أين يمكن أن تكون الرسالة، لكنها لم تحصل على جواب.

بعودتها إلى المنزل، ذهبت إلى المكتبة. بعد إلقائها نظرة على الرفوف الملأى بمئات الكتب السميكة، عثرت في النهاية على «الأمير الصغير»، الذي غالباً ما قرأته وهي طفلة. أخذته من مكانه حيث كان محشوراً بين كتابين ضخمين. لقد كتبت ماريا في رسالة وداعها لوالدها أنها عاودت، بعد مرور سنوات كثيرة، قراءة «الأمير الصغير». وأشارت إلى كم أن الكتاب قد تغيّر كلّياً. فهل هي محقّة؟

نفضت ديانا الغبار عن الغلاف، جلست على الأرض، وفتحت الكتاب.

وانتهت، بعد ساعة على ذلك، من قراءته. استندت إلى

الجدار، وفكّرت لبعض الوقت كم أن الكتاب قد تغيّر. ثم تناولت يومياتها:

«عزيزتي ماريا،

انتهيت للتو من إعادة قراءة «الأمير الصغير» بعد كل تلك السنوات. أنت محقّة، فالكتاب قد تغيّر كليّاً!

أعتقد أنني بدأت أدرك أيضاً معنى «كون المرء مسؤولاً عن وردة».

إلا أن هذا لا يعني أنني سأتمكن من أن أصبح مسؤولة عنها. فهنا نختلف أنا وأنت إحدانا عن الأخرى. فأنتِ تدبّرتِ أن تكوني مسؤولة عن وردتك.

أدركتِ قبلي بوقت طويل أن وردتك ضائعة، وبذلت ما في وسعك للعثور عليها. لقد اعتنيتِ بها...

أتعرفين بماذا أفكّر يا ماريا؟ أتمنى لو أن والدنا أخذني معه بدلاً منك وتركك مع أمنا. أتمنى لو أن أمي كرّست حياتها لك بدلاً منّي. فأنت التي استحقّت أمنا.

انتهيتُ إلى أدراك أن والدتنا لم توكلني بك، بل بالأحرى أوكلتك بي. عرفت أنني أحتاج إليك.

وأعرف أنا الآن ذلك أيضاً.

لهذا، عليك يا ماريا المجيء إلى هنا. عليك مرّة أخرى أن تؤمني بأن في وسعنا لقاء والدتنا في هذا العالم. يجب أن تشعري بأنها مع الله، والله دوماً معنا.

أتذكرين وأنت صغيرة... أتذكرين جوابك للآخرين؟ عندما أخبروك بأن والدتك ميتة، أنها في مكان بعيد جداً، ولا يمكنك أبداً أن تكوني معها من جديد في هذا العالم؟ ألم تعتقدي بوجوب وجود جواب آخر؟

فما الذي حصل إذاً، ليجعلك تغيرين رأيك؟ أم أنك، أنت أيضاً، أصبحت بالغة مثلي؟

لن أتخلّى، يا ماريا، عن الأمل أن تأتي وتلاقيني هنا، لأن هذا ما يخبرني به قلبي:

«إن ماريا، قبل وقت طويل من شروعِكِ في البحث عنها، قد شرعت بالفعل في البحث عنك...».

ديانا».

٤٢

رنّ جرس الباب، بعد دقائق فقط من إقفال ديانا مذكّراتها. هرعت لفتحه.

إنه غبريال، وبين ذراعيه طرد هائل الحجم.

«صباح الخير يا ديانا، بريد سريع لك من اسطنبول. قلب من سرقت هناك؟».

«آمل أنني سرقت قلب أحد ما»، قالت وهي تفكر في زينب هانم.

كان الطرد كثير التحزيم والربط، بحيث إنه يشبه المومياء. وسلمها غبريال معه مغلّفاً. ودّعته ديانا بابتسامة ودّية وفتحت المغلّف.

«عزيزتي ديانا،

تجدين سقراط داخل الطرد، وعلى غصنه إكليل تمت

حياكته بالورود، مثل ذلك الذي ارتدته ماريا في حلمها. تعتقد ماريا أنها لن تسمع صوت أمها إلا بعد استماعها إلى سقراط أولاً. آمل أن تتحقق رغبتها قريباً.

كذلك، أرادت الوردة الصفراء أن تسألك أمراً...

لقد حوّرت لماريا نادرة من نوادر نصر الدين جحا. تريدك أن تقرئي لها الرواية التالية عندما تلتقيان. وبعد أن تستمع ماريا إلى أبيات سقراط، ستحتاج إلى مفتاح لن تجده إلا من خلال هذه الرواية.

مفتاح الكنز:

فقد نصر الدين جحا في أحد الأيام مفتاح كنزه. وبرغم أنه فتّش في الشارع قبالة منزله وحول المنازل المجاورة، إضافة إلى الطريق المؤدي إلى القرية، فإنه لم يتمكن من العثور عليه في أي مكان.

نادى على جيرانه لمساعدته على العثور على المفتاح. فقاموا أيضاً بالبحث عنه في كل مكان، وفي القرية كلها من دون فائدة. كما لو أن الأرض انشقت وابتلعته. ولحسن الحظ، خطر بعد بعض الوقت في بال أحد الجيران أن يسأل جحا:

«جحا، أواثق أنت من أنك أوقعت المفتاح في الخارج؟».

«لا، كلاّ»، قال جحا. «أوقعته في الداخل، لكن البحث في الخارج أكثر سهولة، ولهذا أنا أفتّش هنا».

تقول الزهرة الصفراء: ليس على ماريا البحث عن مفتاح كنزها في الخارج، بل عليها بالأحرى البحث عنه في الداخل...

وربما في الدرج عند رأس سريرها.

نريد، أنا والزهرة الصفراء أن نشكرك على كامل مساعدتك، يا عزيزتي.

زينب».

٤٣

شقت ديانا طريقها عبر العازل البلاستيكي المحيط بالطرد، وأخرجت مادة الحزمة. كل ما بقي قماشة فضيّة اللون تغطّي سقراط. وضعت الفخار الثقيل الوزن بعناية على الطاولة، ثم سحبت القماشة كما لو أنها تزيل الستارة عن تمثال ما.

سقراط!!

«آه، يا إلهي»، همست ديانا.

وخرّت على ركبتيها.

كل ما أمكنها فعله هو التحديق في سقراط، حتى أنه لم يرف لها جفن. كان سقراط شتلة ورد تحمل أربع ورود سوداء. أربع ورود سوداء!

تفرّست ديانا بتعجب في سقراط، وهي غير واعية للوقت.

- أربع ورود سوداء!

قفزت ديانا وهرعت على الفور إلى الإطار الفضي الذي قدمته إليها والدتها هدية في عيد ميلادها. وبعدما داعبت الورود الأربع السوداء التي تزيّنه، وردة من كل جهة، قرأت بيت الشعر المحفور عليه:

«لا، ليس ما تظنينه،

أنت لم تفقديني؛

أتحدّث إليك من خلال كل شيء،

في ما وراء الذكريات...».

بدت ديانا، وعيناها على الكلمات، كما لو أنها تقوم برحلة إلى الماضي.

تذكّرت بعض الأمور التي كتبتها ماريا في رسائلها... ما قالته ماريا للآخرين: «ليس الأمر ما تظنّونه». والكلمات التي قالتها أمها لماريا في حلمها: «أنت لم تفقديني». وما قالته الوردة الوردية لماريا: «تتحدّث إليك أمكِ عبر كل شيء...».

تذكّرت ديانا الأيام التي قضتها في حديقة الورد. تصوّرت قبالة عينيها صورة أرطميس وميريام المتشابكتين معاً في فخّار واحد، وترددت في أذنها أجزاء من حوارهما. تذكّرت الأمور

التي قالتها زينب هانم. بدت كلماتها تماماً على غرار كلمات رسائل ماريا، كأنها كلمات أمها.

تذكّرت ديانا اللحظة التي رأت فيها أمها في عيني زينب هانم. بدا الأمر الآن كأنها تنظر من جديد في عيني زينب هانم. بدا كما لو أن تينك العينين الزرقاوين المتوقدتين، ليستا عيني زينب هانم، بل كأنهما عينا والدتها...

تذكّرت ديانا المرّات التي سألت فيها والدتها عن مفتاح «كنزها»، وكيف أنها ردّت بأنها لا تملكه. تذكّرت القصص التي روتها لها والدتها... تذكّرت الرواية التي أرسلتها الزهرة الصفراء إلى ماريا... والورود الصفراء التي وضعتها السيدة ألفيس على ضريح والدتها.

ذكّر كل سطر من أبيات الشعر داخل الإطار ديانا بواحدة من رسائل ماريا، وشعرت كما لو أنها في كل ثانية تصبح أكثر قرباً من الرسالة المفقودة.

فالسطر الأول «لا، ليس ما تظنينه»، ذكّرها برسالة ماريا الأولى ومخالفتها الآخرين... «أنت لم تفقديني»، ذكّر ديانا برسالة ماريا الثانية، ظهور والدتها في الحلم وقولها لماريا إنها لم تفقدها... ومع عبارة «أتحدّث إليك من خلال كل شيء»، تذكّرت ديانا الرسالة الثالثة، حيث قالت الوردة الوردية

لماريا إن والدتها تتحدث إليها من خلال كل شيء... وبالتالي على الرسالة الرابعة أن تكون مخفية في السطر الأخير.

كررت ديانا المرّة تلو المرّة:

«في ما وراء الذكريات... في ما وراء الذكريات...».

«وراء...».

صمتت فجأة ومدّت يدها صوب الإطار، هذه الذكرى الغالية من أمها. أنزلت الإطار عن الجدار، وقلبته، ونظرت وراءه.

لم تكن مخطئة! ففي الزاوية العليا اليمنى يوجد ثقب مفتاح صغير. تذكّرت ديانا النصيحة التي قدّمتها الزهرة الصفراء في رسالة زينب هانم، فوضعت الإطار على الطاولة وهرعت إلى غرفتها. وهناك، فتحت الدرج عند رأس السرير. تردّدت اصابعها الباحثة على غير هدى بين الأوراق والأقلام التي تملأ الدرج، إلى أن شعرت، تحت هذه كلها، بالمفتاح الصغير الملصق في قعر الدرج.

ضمّت المفتاح براحة يدها. شكراً لك، أيتها الزهرة الصفراء...

عادت إلى غرفة الجلوس، وتناولت الإكليل المصنوع من

الورود المحبوكة بإمعان من أحد أغصان سقراط، ووضعته بلطف على رأسها.

التقطت من ثم الإطار الفضي. كان المفتاح على درجة من الصغر بحيث أسقطته وهي تحاول وضعه في القفل. لكنها تمكنت من فتح الإطار في المحاولة الثانية. وجدت في داخله لوحة فضّية نقشت عليها الرسالة بأحرف دقيقة. كانت تخرجها، بينما أخذ قلبها يخفق بسرعة، بحيث إنها كادت تسمعه يخبط.

أمسكت باللوحة الفضية التي لمعت كالمرآة قبالتها عند مستوى الصدر. كُتبت في أعلاها كلمتان: «عنوان ماريا». ورأت، تحت هاتين الكلمتين مباشرة، انعكاس وجهها على السطح اللامع للوحة.

أعادت الإكليل الذي تراجع قليلاً إلى موضعه، في وقت كرجت فيه دمعتان ببطء على خديها. ومن دون أن تمسحهما، قرأت كلمات أمها:

«عزيزتي ديانا، أو، كما تعوّد والدك أن يدعوك:

«ماريا...».

لطالما تعوّد والدك همس هذا الاسم في أذنك. لكنني لم

أشأ، بعد وفاته، أن أدعوك ماريا إلى أن يحين الوقت لتفهمي هذا الجزء منك الذي يرمز إليه هذا الاسم.

ما أردته هو أن تُجبَري على مغادرة منزلك، وتجتازي محيطاً وتعيشي في الخوف من أن تفقدي توأمك، بحيث لن تتمكن أي قوة أبداً من جعلك تنسين هذا الاسم.

آسفة، يا طفلتي الحبيبة، لأنني، من أجل إرسالك وراء ماريا، اضطررت إلى قول أمور ليست صحيحة كلّياً. لكن وقتي، لسوء الحظ، أخذ ينتهي ولم يسمح لي باختيار سبيل آخر. أردت أن تنطلقي في رحلتك إلى حديقة الورد بأسرع ما يمكن.

ومن خلال تلك الرحلة التي يجب اعتبارها بمثابة تحضير لأمطار تشرين الأول/أكتوبر، أردتك أن تقتلي «ذاتك» التي تتسبب لك في التعاسة، وتمنعك من مواصلة أحلامك.

وبما أن هذه الرسالة بين يديك، فلا بد من أنك حققت بداية جيدة في طريق الورود. ولا بد من أنك أدركت الفارق في حديقة الورد التي رأيتها.

إذا كان الأمر على هذا النحو... وإذا كانت الحديقة مختلفة، بالنسبة إليك، عن كل الحدائق الأخرى، وإذا كان سقراط مختلفاً عن الورود الأخرى، وإذا كانت الأنت في تلك

الحديقة مختلفة عن كل الأنت الأخرى... وإن كان هذا الفارق، بدلاً من أن يعطيك شعوراً بالتفوق، قد وضعك ومدّك بشعور باحتضان العالم كلّه... عندها، يا عزيزتي، ندعوك أنا وزينب، إلى أفسس في تشرين الأول/أكتوبر، بما أنه لا يمكن معرفة ماريا حقيقة إلا عبر أمطار تشرين الأول/أكتوبر...

من يدري، ربما سأتحدى جميع قوانين الطبيعة وآتي إلى أفسس ممتطية حصاناً مجنحاً، بحيث يمكنني معانقة ابنتي، وبحيث يمكنني أن أقف معك تحت مطر تشرين...

وحتى لو لم تريني هناك يا عزيزتي، أنصتي جيداً إلى الأصوات في أفسس... وسرعان ما ستدركين أنه يوجد في أفسس صوت واحد، وليس صوتين، صوت ماريا... صوتك...

وإذا ما قال هذا الصوت، في يوم من الأيام، «اسحبي كل طلبات التوظيف التي قدمتها في مكاتب المحاماة، وضعي ورقة بيضاء أمامك واشرعي في تحقيق كتابك الأول في حياتك المهنية»، فستكون لدي نصيحة واحدة أسديها إليك، يا عزيزتي. أخبرينا في كتابك عن أقدم رواية بين الروايات:

رحلة تبدأ وتنتهي معك...

فبعيشك هذه الحكاية تكونين قد كتبتها بالفعل، ولم يعد أمامك بالتالي سوى وضعها على الصفحات.

وربما تريدين، في صفحة من الصفحات، استخدام القول المأثور الذي وعدتك به زينب كمكافأة على سماع الورود. وهو قول لقديس صوفي:

«توجد في داخلي أنا واحدة، موجودة عميقاً في ذاتي».

أحبك يا غاليتي... وأنا دائماً معك.

أمّك».

الجزء الثالث

٤٤

«١٩ أيلول/ سبتمبر

أمي الحبيبة،

احتمال لقائك بعد كل هذه الشهور، يغمرني بسعادة لا توصف. فسآتي، بعد شهر بالتمام، إلى أفسس! وهكذا، يمكنني الوقوف مع أمي تحت مطر تشرين...

أخذت، في الشهور الأربعة المنصرمة، أعمل على روايتي الأولى. أتمنى لو أستطيع قراءة قصتي لك، لكن، لسوء الحظ، فهي لم تجهز تماماً بعد. وبرغم ذلك، لا أزال أود أن أزودك بنبذة عنها.

الرواية تتعلّق بوردة، يا أمي. وردة أفسس... وردة خُلقت وهي تحمل أريجاً ربّانياً. ولهذا الأريج صوته الخاص. صوت سعادة. يتحدّث عن الأحلام. يتحدّث عن الملائكة، وعن اللقاء مع الله في هذا العالم.

لكن الوردة، مع نموّها، أخذت تسمع صوتاً مختلفاً؛ صوتاً اعتقدت خطأً أنه صوتها... صوتاً يقول، «أنا» طوال الوقت. إنه صاخب. صاخب إلى حدّ أن الوردة لم تعد قادرة على سماع صوتها الأصلي.

تحتاج الوردة إلى العناية بأريجها لتتمكن من سماع هذا الصوت من جديد. لكنها مزروعة في مكان لا يحبّها الناس فيه لأريجها، بل يهتمون فقط بلونها، وساقها، وفليجاتها...

هكذا، على أمل أن تستحق محبتهم، كيّفت نفسها بحسب ما يريدها الآخرون أن تكون. يقول الناس «ازدادي طولاً»، فتزيد طولاً. ويقولون «ألْقي تويجاتك»، فتفعل ذلك بهَرَعٍ صامت. لكن أريجها، قبل مضي وقت طويل، أخذ في الخفوت نتيجة الإهمال.

شرع الناس، الذين أعطوها شكلها، يمطرونها بالثناءات كما لو أنها إلهة، وسرعان ما بدأت الوردة في الاعتقاد أنها كذلك. لم تدرك أن الأمر الوحيد الذي تحتاج إليه لتشعر بأنها متميّزة، هو تذكُّرها أنها وردة. ما من شيء عظيم، بل مجرّد وردة...

وأخذت، مع كل يوم يمرّ، تجد نفسها وقد أصبحت تعسة أكثر فأكثر. احتفظت بسعادة وحيدة في حياتها، وهي والدتها.

لكن في الوقت الذي أخذت تكتشفها فيه، فقدتها إلى الأبد، بينما هي في أمس الحاجة إليها. . . أو هكذا تعتقد.

هذه القصة يا أمي لا تتحدّث في الواقع عن وردة، بل عن أم. إنها عن أم أثبتت أن الورود الحقيقية لا تموت أبداً، وأنها تستمر في إطلاق عطرها حتى بعد ذبولها... إنها عن أم اضطرت إلى هزّ وعاء الوردة لتجعلها تتذكّر...

هل سيكون هذا ممكناً؟ هل ستتذكّر ما نسيته، أم تنسى كل ما تعلّمته؟ هل ستتمكن من استعادة أريجها؟ وهل ستتمكن، فوق ذلك كله، من سماع صوتها الأصلي؟

آمل ذلك بالتأكيد...

هذه، في الحقيقة يا أمي، بدرجة تزيد أو تنقص، قصة روايتي. إلا أنني لست متأكدة من أنني رويتها كما يجب. أشعر أكثر ما يكون بأنها قصة على المرء أن يعيشها. لم أتمكن من وصف طعم حبة الزيتون لزينب هانم، فكيف يمكنني أن أصف سحر حديقة الورد؟

لكن، لا بأس، حتى ولو أخفقت. لا بأس إذا لم أروِها جيداً، ولا بأس إذا لم يحبّها الآخرون... فللقصة مغزاها بالنسبة إليّ. وأنا سعيدة لأنني رويتها. لكن لا، أنا لم أفعل ذلك، بل أنت أخبرتني إياها. أخبرتني عنها في وقت اعتقدت فيه أنك لن تتمكني أبداً إخباري قصة أخرى.

أشكرك يا أمي...

أشعر بعطرك في الجو. وأشعر، في كل مرّة أشمه، بأنه مختلف.

أريج الورد في كل مكان.

ديانا».

٤٥

التقط ناظري، وأنا على وشك إنهاء روايتي، مشهد بالونات زرقاء تطير من أمام النافذة في مجموعات من خمسة أو ستة. من أين مصدرها يا ترى؟

فتحت النافذة لأرى ما يحصل. شيء ما يحدث في المتنزّه، وأمكنني قراءة الكلمات المكتوبة على لافتة قماشية كبيرة:

«بحور البرازيل المتغيّرة

معرض فني في الشارع

٢٤ ـ ٢٧ أيلول/سبتمبر»

غادرت المنزل لحضور افتتاح المعرض، بعدما أضفت إلى روايتي الفصل الذي أرى فيه البالونات الزرقاء.

٤٦

شاهدت، بوصولي إلى المعرض، نحو عشرين لوحة متراصفة. بحثت عيناي عن ماتياس، ولم أستطع رؤيته. تفحّصت اللوحات، بحثاً عن تلك التي رسمها عندما كان هنا. وعند هذا الحد لاحظت قارئ طالعي، وهو يلوّح لي.

«أنت محظوظة أيتها السيدة الصغيرة. أترين من هنا؟».

ابتسمت: «هاي، نحن لا نعرف حتى لماذا هو هنا».

«لنعش ونر»، قال.

«نعم، لنعش ونر»، قلت. «آه، بالمناسبة، تحدّثت بالأمس مع السيدة ألفيس، وهي ترسل تحياتها إليك. لكنها لا تزال تتساءل لماذا لم تقبل هديتها».

«ولماذا أقبل هديتها؟ أنا رجل شريف وأحترم عملي. لا أقبل أي هدية أو مال إذا لم أقرأ لك طالعك».

«حسناً، أنت ربما لم تقرأ في الحقيقة طالعي، لكنك جعلتني بطريقة ما أشرع في قراءة تلك الرسائل. ألا يمكنك أن تقبل هديّة السيدة ألفيس كعربون صغير، كتقدير بسيط للطافتك في مقابل مساعدتها هي وأمي؟».

«هدية في مقابل اللطف، آه؟ يبدو الأمر مقايضة بالنسبة إلي، أيتها السيدة الصغيرة. اللطافة هي...».

توقّف وأشار إلى الشحاذين الآخرين.

«أترين الشحاذين هناك؟ تعوّدوا أن يكونوا الشحاذين الأوفر حظّاً في المدينة. بطونهم ممتلئة من الفجر حتى النجر. أفتحت أبداً عينيك ورأيت ما يأكلون؟ أكلنا جميعنا في صحون فضّية. كان فتى يأتينا، في كل صباح، بطعام شهي، ثم يرحل. أكلنا جميعنا مجاناً، لوقت طويل، قبل أن يحجب الطعام... تساءلنا جميعنا عمن يرسل هذه الصحون، لكن الفتى تكتّم! ولا يزال الآخرون لا يعلمون حتى اليوم من صاحب القلب الطيب هذا الذي أرسل إلينا الطعام. لكنني أعلم، لأن الطعام توقّف عن المجيء منذ ستة شهور تماماً. والآن قولي لي أيتها السيدة الصغيرة، من تعتقدين أنه أرسل كل هذا الطعام الفاخر؟».

«لا أدري، ربما مؤسسة خيرية ما؟».

ابتسم: «كما ترين، أيتها السيدة الصغيرة، اللطف يعني أنه حتى ابنتكِ لا تعرف الأعمال الخيرة التي تقومين بها».

لم أعرف ما أقول. لكنني شعرت مرّة أخرى بالتميّز في كوني ابنة أمي.

«آسفة، لم أعرف. سأبلغ المطبخ ما إن أعود إلى الفندق، سأحرص على أن يصل الطعام و. . .».

«لا حاجة»، قال. «أردت وحسب أن أطلعك على سبب رفضي هدية السيدة ألفيس اللطيفة المعشر. والآن، لا تشغلي رأسك الجميل بهذه الأمور، اذهبي وشاهدي رسومه».

قلت «شكراً»، وأنا أربّت على ظهره.

توجهت، بعد مغادرته، صوب المجموعة الواقفة أمامي. كانوا يتفحّصون اللوحة التي رسمها ماتياس عندما كان هنا. وعندما تأملت اللوحة بعناية، أدركت ان ماتياس لم يرجع من أجلي. فهو قال إنه سيقيم معرضه في المكان الذي رسم فيه أجمل لوحاته. وبالفعل، هذه اللوحة هي الأجمل من بينها كلّها. بل إن صخب الموج ازداد أكثر، ولا يزال يوجد نورس واحد في الزاوية العليا. ألا يتعب هذا الطائر أبداً من الطيران وحيداً؟

فجأة، لاحظت ماتياس، يقف وسط مجموعة من الناس

ويدير لي ظهره، وإلى جانبه رجل يحمل بيده قائمة بالأسعار. أمكنني باقترابي أكثر سماع الرجل «أحببنا هذه اللوحة بشدة، وبخاصة زوجتي، فلو أمكن خفض السعر بعض الشيء...».

«إنها المفضّلة لدي أيضاً»، قال ماتياس. «سأكون أكثر من سعيد في أن أقدم حسماً و...».

توقّف عندما لاحظ أنني أقف إلى جانبه تماماً. حدّق إلي، ولم يتفوّه بكلمة، ولا حتى «مرحباً». ركّز نظره على جبهتي كما لو أنه رأى أغرب ما في الكون.

مرّت خمس عشرة ثانية أو أكثر قبل أن يستدير من جديد إلى الزبون، ويقول له «لكن، لسوء الحظ، لا يمكنني أن أبيع لوحة لم أنته منها بعد».

«إذا لم تكن منتهية، فلماذا ضمنتها في جدول الأسعار؟».

«آسف، سيدي. لكنني لم أدرك ذلك إلا الآن». وأشار إلى البحر «رسمت البحر في هذا الوقت بالتحديد من النهار، متطلّعاً إلى تلك البقعة بالتحديد... انظر، ألا تعتقد أنه يوجد المزيد من الضوء على وجه الماء؟ فأنا، بطريقة ما، لم أنتبه إلى مدى سطوعه».

بقيت عينا ماتياس تسترقان النظر إليّ وهو يعتذر من

الرجل. بدا أن ذلك يزعج الرجل. دمدم شيئاً في أذن زوجته، وأخذها من ذراعها وسارا بعيداً.

استدار ماتياس صوبي «لا أدري ما أقول، يا ديانا، فأنا فعلاً...».

«لا تقل شيئاً».

«لن أسألك عن حالك، لأنني أرى أنك تبدين، على نحو استثنائي، بخير. لا يمكنني أن أمنع نفسي عن التساؤل عمّا حدث منذ أن...».

«قصة طويلة»، قلت. «يمكن المرء في الواقع أن يكتب رواية عنها».

«أود أن أسمعها».

٤٧

سرنا مسافة قصيرة لم يلقَ فيها أي من أسئلته جواباً، ووصلنا أخيراً إلى المنزل.

«أرجوك أن تجلس حيثما تشاء، لكن عدني بأنك لن تنهض حتى أنتهي. عليّ أن أكتب شيئاً لبعض الوقت».

«حسناً، أعدك بذلك»، قال، وجلس على الكرسي إلى جانب النافذة، واضعاً لوحته غير المنتهية في حضنه.

فور انتهائي من كتابة الجزء الذي نعود فيه إلى المنزل من المتنزَّه، أنزل ماتياس فرشاته وأخذ ينظر إليّ. بدا عليه تعبير الطفل السعيد. آه، أتساءل إن كان عليّ أن أدعوه إلى أفسس...

لكن كيف أفعل ذلك؟ خصوصاً أنني لا أعرف حتى ما الذي سيفعله في أفسس. بدا أن زينب هانم تنافس أمي والسيدة ألفيس في التشدد في عدم إفشاء أي سر. الأمر الوحيد الذي

أعرفه بالتأكيد هو أنني سأكون هناك لأتعرّف على نحو أفضل، إلى ماريا. وكيف لي الآن أن أشرح هذا لماتياس؟

هل يمكن للمعرفة الموسوعية الصغيرة التي أملكها، أن تجعل هذه المدينة الصغيرة في الطرف الآخر من العالم، تستهويه؟ ماذا هناك بالنسبة إلى ماتياس في أفسس؟ أطلال مدينة قديمة... هيكل أرطميس... منزل مريم العذراء... هل يكفي هذا كله لإقناعه بالمجيء؟

من المؤكّد أنني سأكون هناك أيضاً!

«أرى أنك تشمخين بأنفك من جديد»، قالت ماريا، قاطعة عليّ حبل أفكاري. وهذا أمر يحصل في الغالب الآن. فكلما أشرأبت أرطميس التي في داخلي برأسها، أسمع ميريام تخالفها. أحياناً يكون صوت ديانا أقوى، وأحياناً صوت ماريا... يبدو أن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن تصبحا وردة واحدة. لكنني سعيدة بما أن في وسعي الآن التمييز بين صوتيهما.

وبالتالي... هل سيأتي ماتياس حقيقة إلى أفسس؟

وإذا فعل...

• ربما أننا، في واحدة من أمسيات تشرين الأول/أكتوبر،

سنجلس جنباً إلى جنب عند ضفة جدول ميليس، وجبل بلبل من أمامنا، نشاهد غروب الشمس.

ربّما أُخبر ماتياس عن أمور حصلت منذ نحو ألفي عام. أمور قرأت عنها، أو ربما بعد أن أستمع بنفسي إلى الأصوات المتصاعدة من أفسس القديمة.

ربما أقول له شيئاً عن الحالة الإنسانية أيضاً. سأقول له «نحن جميعنا أشبه بمدينة أفسس. موطن كل من أرطميس ومريم العذراء».

ولأريكه أكثر، سأخبره أيضاً عن شقيق أرطميس التوأم أبوللو. وعندها سأقطّب وجهي وأقول «لا تهتم بأبوللو. ابحث أنت أيضاً عن توأمك الضائع!».

ولو أن كل شيء تحقق، في إحدى أمسيات تشرين الأول/أكتوبر، بالطريقة التي أتخيّلها، فقد أشهد أنا على حقيقة كلمات زينب هانم:

«الأحلام هي خميرة الواقع».

٤٨

رأيت، وأنا أشرع للتو في كتابة الفصل الأخير، ماتياس يمدّ يديه باللوحة صوبي.

انتهى منها بإضافة لمسة أخيرة، وقد كشف عن جناح ثالث، يلمع بين جناحي النورس الوحيد... عن نورس ثان مخفي وراءه.

لم أستطع إزاحة عينيّ عن اللوحة، برغم أنني واصلت الكتابة. سأكتب بعد بضع جمل، وعندها... سآخذ صفحات روايتي الأولى من الطابعة وأناولها لماتياس.

نظرت لبرهة في عينيه وأنا أفكّر في زجاجتي المشروب في الفصل الأول... سأفكّر في البداية والنهاية... في الموجتين في حكاية ماتياس الصغيرة... أرطميس وميريام... في النورسين في اللوحة... ماريا وأنا... والأهم من ذلك كلّه: سأفكّر في والدتي وفيّ.

سيُخبرني قلبي الأمر نفسه تماماً في شأن هذه كلها. ويستطيع ماتياس أيضاً أن يعرف ما يقوله قلبي، سأقرأ له الكلمات الأولى في روايتي:

«اثنان هما واحد».

خاتمة

أفسس! مدينة الثنائية. موطن كل من هيكل أرطميس، ومعبد مريم العذراء المقدّسة. هي المدينة التي تجسّد كلتا: الأنا والروح؛ خلاصة الغرور والتواضع؛ التجسيد للعبودية والانعتاق. أفسس! المدينة التي تتداخل فيها التناقضات. المدينة التي هي إنسانية بقدر إنسانية الروح الحيّة.

جلسا جنباً إلى جنب، في إحدى أمسيات تشرين الأول/ أكتوبر، على ضفة جدول ميليس قريباً من تلك المدينة: مدينة أفسس القديمة. أوشكت الشمس على الاختباء خلف جبل بلبل الذي أضفت عليه أشعتها اللون القرمزي. فالذين يتحدّثون لغة السماء، جاؤوهما بالبشارة السعيدة بقرب هطول المطر.

«يبشّر القديس بولس الناس بمريم العذراء»، قالت الشابة. «أوَتسمع الجماهير تصيح محتجّة وتلعنه بغضب؟ الآلاف يتمرّدون على الديانة الجديدة التي تمنع عليهم عبادة آلهتهم الخاصة. أنصتْ إليهم يضربوا بأقدامهم الأرض، ويصيحوا: لا نريد مريم! فنحن نعبد أرطميس!».

«أرطميس؟»، سأل الشاب. «الإلهة؟ ديانا الرومانية؟».

«لا تهتم بها»، قالت الشابة. «فما هي إلا وهم، صوّره آخرون وعبدوه».

«يبدو أنك تعرفين الكثير عنها».

«أعرفها معرفتي نفسي».

«ولمَ إذاً، لا تخبريني شيئاً عنها؟».

«هي إلهة الصيد»، شرعت قائلة. «صيّادة حقّة تستخدم سهمها لتقدّم الموت المفاجئ اللطيف إلى عدوّها. روح حرّة، وبرغم ذلك مستعبدة. تابعة لكن متكبّرة. فقد ولدتها أمها، ليتو، مستندة إلى شجرة زيتون، هي و...».

وأضافت بعدما أخذت نفساً عميقاً، «شقيقتها التوأم...».

أمسكت بيد ماتياس، وقالت: «سأصل إلى توأمها أبوللو لاحقاً. سأخبرك عن معبده بأروع كلمتين محفورتين على واجهته، Gnoti Seavton (اعرف نفسك). سأخبرك أيضاً عن الفيلسوف الكبير، سقراط، الذي لم يستطع أن يرفع عينيه عن هاتين الكلمتين، وهو يمرّ في أحد الأيام أمام معبد أبوللو Gnoti Seavton. كلمتان تكشفان عن علّة خلق الكون بأسره، عن سبب وجودنا. إلا أنني أريد أن أحدثك أولاً عن الوردة،

توأم أرطميس، التوأم التي لم يعلم بها أي من أرطميس أو سقراط.

وتابعت ديانا «استناداً إلى الأسطورة: علمت أرطميس في يوم من الأيام من والدتها، أن لها توأماً من نوع مختلف تماماً. غادرت المنزل بحثاً عنها، عبرت أحد المحيطات ودخلت حديقة ورد طُلب منها فيها أن تُنزل بنفسها ميتة فجائية لطيفة. وقيل إنه كان عليها الاستماع إلى صوت الورود من أجل أن تعثر على توأمها.

«عادت أرطميس إلى المنزل، بعدما أمضت بعض الوقت في الحديقة، وعثرت على مفتاح سيقودها إلى توأمها. استطارت فرحاً للعثور عليها، بيد أن فرحها لم يخلُ من الغيوم. لم تستطع الامتناع عن سؤال نفسها: «هل فن الاستماع إلى الورود أسطورة؟». لكنها تذكّرت عندها ما قالته لها البستانية في يومها الأول في الحديقة، وبالتالي وجد قلبها العزاء. «صورة موضوعة في قلبك»، قالت البستانية، «قد لا تكون بادية للعيان الآن، لكنها ستظهر عندما يحين الوقت المناسب».

حدّقت إلى غيوم المطر المتجمعة في الأفق: «ربما حان الوقت الآن، يا جون»، أضافت ديانا. «انظر، فإن مطر تشرين يقترب...».